جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

الصداقة وتجلياتها في شعر ابن شُهيد
دراسة وصفية تحليلية

إعداد
د/ أنور يعقوب زمان
أستاذ مشارك جامعة طيبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

(العدد السادس والثلاثون)
(الإصدار الثالث .. أغسطس)
(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

الصداقة وتجلياتها في شعر ابن شُهيد – دراسة وصفية تحليلية

أنور يعقوب زمان
قسم اللغة العربية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة طيبة
البريد الإلكتروني: AZAMAN@TAIBAHU.EDU.SA

الملخص :

تتناول هذه الدراسة موضوع الصداقة عند الشاعر ابن شهيد، الذي عايش عصر الفتنة في الأندلس، فكان له تصور خاص تجاه هذا الموضوع.

تهدف الدراسة إلى إبراز الموضوعات والأفكار التي ذكرها ابن شهيد في موضوع الصداقة، وجلاء الأليات الإبداعية التي انتهجها للتعبير عن ذلك.

والمنهج المتبع هو المنهج الوصي التحليلي، القام على وصف الظاهرة والإجابة عن فرضياتها.

بدأت الدراسة بتمهيد يبرز مفهوم الصداقة عند ابن شهيد، تلا ذلك مبحثان: الأول: ملامح الصديق الحق، وتضمن مجموعة من المطالب تبين هذه الملامح وهي: أنه سكن، ومشارك، وصاحب صفات رفيعة، وموقفه في لحظات الفراق. وتناول المبحث الثاني الحديث عن مدعي الصداقة، فتم الحديث فيه عن الغربة والاغتراب، وقرطبة والأصدقاء.

ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة: انعكاس العصر الذي عاش فيه الشاعر، وهو عصر الفتنة، على شعره في هذا الموضوع. واستخدم ابن شهيد آليات متنوعة للتعبير عن هذا الموضوع. تميزه بطريقة معالجته الأدبية لذلك. مدعو الصداقة أشد ألماً من العدو الصراح، فواجههم ابن شهيد بالدفاع عن نفسه وإن اقتضى الأمر فالفخر عليهم.

الكلمات المفتاحية: الصداقة – ابن شهيد

Friendship and its manifestations in the poetry of Ibn Shahid - a descriptive analytical study

Anwar Jacob Zaman
Department of Arabic Language, College of Arts and Humanities, Taibah University
Email: AZAMAN@TAIBAHU.EDU.SA

Abstract :
This study deals with the issue of friendship with the poet Ibn Shahid, who lived through the era of strife in Andalusia, and he had a special perception towards this topic.
The study aims to highlight the topics and ideas mentioned by Ibn Shahid in the subject of friendship, and to clarify the creative mechanisms that he used to express this.
The approach followed is the analytical guardian approach, which is based on describing the phenomenon and answering its hypotheses.
The study began with an introduction highlighting the concept of friendship for Ibn Shahid, followed by two topics: the first: features of the true friend, and included a set of demands that show these features, namely: that he is a dweller, a participant, and possesses high qualities, and his position in moments of separation. The second topic dealt with talking about the claimant of friendship, so it talked about alienation and alienation, and Cordoba and friends.
Among the most prominent findings of the study: the reflection of the era in which the poet lived, which is the era of sedition, on his poetry on this subject. Ibn Shahid used various mechanisms to express this topic. Distinguish him in his literary way of dealing with it. The so-called friendship is more painful than the outright enemy, so Ibn Shahid confronted them by defending himself, and if necessary, then pride is upon them.

Keywords: Friendship - The Son Of A Martyr

مقدمة:

الحمد لله خالق المشاعر والأحاسيس ومهذبها القائل: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥ ﴾ [1]، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين القائل: لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِن أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلا، لاتَّخَذْتُ ابْنَ أَبِي قُحافَةَ خَلِيلا، ولَكِنْ صاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ[2]. ففي هذا الحديث أبرز النبي ﷺ مكانة أبي بكر الصديق ﷺ، وأبان ﷺ عن مكانته عند الله عز وجل.

إن الخلة درجة من درجات الصداقة، والصداقة شعور إنساني نبيل يحتاجه جميع البشر، فالإنسان يلجأ لصديقه ليعبر له عن مكنون نفسه من أفراح وأتراح وهموم وغموم وآمال وآلام، ويبرز الصديق بصفات كثيرة فقد يكون قريباً في النسب أباً أو أماً أو أخاً ...، وقد يكون بعيداً نسباً، وقد يكون زوجة أو غيرهم.

والشاعر ابن شهيد صاحب النفس المرهفة أحد الشعراء الذين عاصروا فترة الفتنة في الأندلس، التي كان فيها الكثير من الأحداث والاضطرابات، وكان له الكثير من الحساد، فكيف عبر ابن شهيد عن الصداقة من خلال شعره، وكيف كانت نظرته لهذه العاطفة الإنسانية؟

تأتي هذه الدراسة لتستكشف نظرة شعراء الأندلس تجاه الصداقة في عصر كثر فيه الغدر والخيانة، وهو عصر الفتنة، وتم تحديد أنموذج لذلك الشاعر ابن شهيد، ووقع الانتخاب له لأنه عاصر وعايش هذه الفتنة واتصل وخالط أهل

(١) سورة النساء، آية ١.

(٢) مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم بشرح النووي، ط٤، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٥٢/١٥.

السياسة فيها، فرأى عن قرب موقف الناس من هذه العاطفة (الصداقة)، فعبر عن ذلك من خلال شعره وأوضح تباين الناس وتنوعهم تجاه هذه العاطفة.

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من أن الشاعر ابن شهيد أحد شعراء الأندلس المشهورين، ولكن قدر الله أنه لم يعمّر طويلاً، بل توفي قبل أن يصل الخمسين، فعاش عقلية الفتوة والشباب، ولم يصل في إبداعه إلى مرحلة الكبر والشيخوخة، فإبداعه يحتاج إلى من يظهره ويبرزه.

تسعى هذه الدراسة لاستجلاء الأفكار والموضوعات التي تناولها ابن شهيد عند حديثه عن الصداقة، وبيان الآليات الإبداعية التي انتهجها للتعبير عما في خاطره. ولم تتناول الدراسة قصائد المدح والهجاء والرثاء للحكام أو الوزراء الذين لم تربط ابنَ شهيد بهم علاقة قوية ومتينة.

ويتمحور موضوع الدراسة حول مجموعة من الأسئلة:

ما مفهوم الصداقة عند ابن شهيد؟

ما التجليات والصور التي ذكرها ابن شهيد عن الصديق الحق؟

ما التجليات والصور التي ذكرها ابن شهيد عن مدعي الصداقة؟

وليكون البحث موضوعياً ومنظماً، وللحصول على نتائج ناجعة تبنت الدراسة منهجاً علمياً متوافقاً مع الإشكالية المطروحة وهو المنهج الوصفي التحليلي، الذي يقوم على وصف ظاهرة الصداقة والإجابة على التساؤلات المتعلقة بها، ثم تحليل الأبيات التي تم جمعها عن طريق المنهج الوصفي، وإعطاء وتقديم تفسير لها واستخلاص النتائج المناسبة عنها.

تشكل دراسة الصداقة في شعر ابن شهيد قيمة أساسية تسير في تمهيد عن مفهوم الصداقة عند الشاعر، ثم الحديث عن تجليات وصور الصديق الحق، ومدعي الصداقة، للوقوف على مدى ارتباط هذا الموضوع بحياة الشاعر وأغراضه وموضوعاته.

ومما يزيد من أهمية الدراسة أن عاطفة الصداقة عاطفة خالدة باقية ما بقيت البشرية، فالناس يحتاجون التعبير عنها مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة، وبيان وإظهار آليات تجليات هذه العاطفة وهي الصداقة.

ومن هذا المنطلق آمل أن يسهم هذا البحث في إثراء المكتبة العربية، وأن يكون منطلقًا لأبحاث ودراسات جديدة تكون إسهامًا في هذا المجال؛ لأنها تكشف عن هذه العاطفة الإنسانية عند الشاعر ابن شهيد، وتستعرض الإنتاج الفكري لديه.

سوف تجلي هذه الدراسة: الصداقة عند ابن شهيد من خلال شعره، وتوضح نوعي الصداقة، وصور كل واحدة منهما.

اخترت شعر الصداقة لأن الصديق هو الملجأ الذي يلجأ إليه الإنسان والشاعر، فيجد عنده الأمان والسكينة، فعندما يتصف الصديق بالصفات الحسنة يزيل غربة الحياة وكدرها ويدخل السكينة، والعكس بالعكس عندما يتصف بالصفات السيئة يعمق عنده الوحشة والاغتراب.

إن عنوان الدراسة يشتمل على مكون رئيس وهو الصداقة، عند شاعر محدد وهو ابن شهيد، وبالتالي سيتناول التمهيد الحديث عن: مفهوم الصديق عند ابن شهيد.

ولكون الأصدقاء منهم صادق المحبة والأخوة، ومنهم عكس ذلك، فسيتناول المبحث الأول: ملامح الصديق الحق، ويتناول المبحث الثاني ملامح مدعي الصداقة.

وسيتم في ثنايا ذلك وصف هذه المظاهر وتحليلها وبيان الجماليات فيها.

ولم تكن تلك الصداق والمحبة من طرف واحد بل كانوا يبادلونه حباً بحب، وزيارة بزيارة، وقصيدة بقصيدة، وخير دليل على ذلك رد ابن حزم على قصيدته:

ولما رأيت العيش ولى برأسه ...

التمهيد:

يتناول التمهيد تحديد مفهوم الصديق عند ابن شهيد، وإفراده بقصائد في ديوانه.

الصداقة معنى إنساني شريف، أُلف فيها من الكتب الكثير، ونظم فيها معظم الأدباء، فهي علاقة وشعور لا يستغني عنها الإنسان الاجتماعي بطبعه.

واضح جداً أن شعر الصداقة والصديق كان يلح على ابن شهيد إلحاحاً واضحاً أثناء نظمه(١)، لذلك أفرد قصائد خاصة عن الأصدقاء، فتوجه بذلك لأشخاص بأعيانهم، فرثاهم ومدحهم ووصف بساتينهم، وفي نوع آخر تحدث عنهم بالعموم فخاطبهم في مرضه، وودعهم، ووصف مجالسهم، واشتكى لهم.

كما جاء الحديث عن الصداقة والأصدقاء في ثنايا قصائد ديوانه وبذلك يكون "قد أكسب تلكم الأغراض الشعرية التقليدية خصوصية في موضوع الصداقة"(٢).

غلب على ابن شهيد أنه شخص منطقي عقلاني، فهو يقسم الصديق إلى قسمين، الأول من هو صادق الأخوة والمحبة، والآخر صديق المجاملة ومضمر العداء، فالأول من حيث العاطفة صادق الود والمحبة، ولذلك انعكس هذا على تصرفاته وسلوكه، فهو مشارك في الأفراح والأتراح، في الرخاء والشدة. متصف بمحاسن الصفات من نبل وكرم وشجاعة، ولذلك فهذا الصنف يبادله ابن شهيد صادق المحبة وخالصها، ويقدم روحه ونفسه فداء لهم. وبذلك فهذه هي الصورة المثالية للصديق عند ابن شهيد.

---

(١) عبد الفتاح، علاء فؤاد، الصديق في شعر البارودي بين الواقع والخيال – دراسة موضوعية فنية، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، الإسكندرية، المجلد: السابع، العدد: الثامن والعشرون، ص٥٥٣.

(٢) السابق، ص٥٥٣.

أما الصنف الثاني مُدّعو الصداقة فقلوبهم مملوءة حقداً وانتقاصاً لقدره ومكانته، وبالتالي اختلفت عاطفته تجاههم وأسلوب تعامله معهم، فهو يتحداهم ويفخر عليهم ويترفع عنهم.

المبحث الأول: ملامح الصديق الحق:

لا تميل النفس إلى أخرى إلا لوجود مبررات ومسببات لذلك، فالصديق لا يكون صديقاً إلا لأنه جمع الصدق في مشاعره وتصرفاته. وتنوعت وتعددت صفات وسمات هذا الصديق الحق عند ابن شهيد، وأول ما يُبدأ به.

المطلب الأول: سكن:

السكن يدل على الاستقرار والراحة المادية والمعنوية. فقد ورد السكن في القرآن الكريم على عدة معان، ومنها: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1]، فالشخص الذي يطمئن إليه الإنسان هو مصدر السكينة والأمان، يبادله الإنسان همومه وغمومه، أفكاره وأحلامه، آماله وآلامه، وهذا متحقق في الزوجة والخل الوفي.

هناك تلازم بين السكينة الاجتماعية والسكينة النفسية، فسكينة النفس يعود أكثرها بسبب آثار اجتماعية، وعلاقات ممتازة مع أصدقائه والمجتمع، كما يتضح في الأبيات الآتية، حيث ذكر أن صحبه يتمتعون ويلهون معه، فهو يشرب مع فتية، "والفتى عند العربي يجمع القدرة على الرأي والإقدام ويجتمع فيه البأس والمروءة"[2]، فيتشارك معهم متعة الشراب. وصورة الشرب مع الأصدقاء صورة متكررة عند ابن شهيد، و"الملامح الأسلوبية المتكررة في عمل الكاتب بانتظام

(١) سورة الروم، آية ٢١.

(٢) هياجنة، محمود سليم، الاغتراب في القصيدة الجاهلية – دراسة نصية، إربد: دار الكتاب الثقافي، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، ص٥٣.

هي عناصر مرتبطة بمراكز وجدانية في نفسه وأفكار عاطفية سائدة، وليست مظاهر مرضية"[١].

فالحان في الأصل مكان صخب وضجيج، ولكنه أصبح هنا مكان راحة وسكون بسبب وجود الصحب، "فالمواقف النفسية تنشئ علاقة بين الأديب والمكان، والشعر يرتبط مكانياً بالبيئة التي نشأ بها وبالإنسان المبدع الذي أنشأه"[٢].

ولَـرُبَّ حـانٍ قـد أدَرْتُ بدَيْرِهِ خَمْرَ الصِّبا مُزِجَتْ بِصَفْوِ خُمُورِهِ
في فِتْيةٍ جَعَلُوا الزِّقاقَ تِكاءَهُمْ مُتَصَـاغِرِينَ تخشُّعـاً لكَبِيـرِهِ[٣]

المطلب الثاني: مشارك:

المشاركة من الأصدقاء للإنسان من أقوى مدخلات الفرح والاطمئنان، فالمشاركة دليل وعلامة على المحبة والوئام، والمشاركة تكون لأمور مادية ومعنوية.

وقد عدد ابن شهيد مجموعة من الأمور شاركه أصدقاؤه فيها، منها:

المشاركة: في **الشرب** كما تقدم في الأبيات السابقة، والأصدقاء يشاركونه في **الصيد**، فعندما يكون المرافق في هذه المتعة الأصدقاءَ والخلانَ تزداد السعادة والمرح، فابن شهيد استحضرهم معه، وفي مسيرهم للصيد شرعوا **بالغناء** حتى يكون محفزاً لهم، فعمَّ شعور الأنس والسرور وانتشر، حتى شمل الخيول والدواب

(١) بو حوش، رابح، اللسانيات وتحليل النصوص، ط٢، عالم الكتب الحديث، إربد، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص٢٢.

(٢) القرني، عبد الله محمد، شعرية المكان في أعمال القصيبي الشعرية، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، العدد: ٥، السنة: الرابعة، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م، ص٣٦٧.

(٣) ابن شهيد، ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعه وحققه: يعقوب زكي، راجعه: د محمود علي مكي، القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ص١١٥.

التي تفاعلت مع الغناء، وبعد انتهائهم من الصيد تشاركوا أخرى في **الشواء**، وصاحب ذلك الشرب، ولسعادتهم أكثروا منه وأفرطوا حتى أصبحوا صرعى.

والمقطوعة مثقلة بالتصوير الجميل، وهذا أشاع فيها غير قليل من الحيوية والطرافة، وبمهارة الفنان أكد ابن شهيد المشاركة مع أصدقائه بـ (الصحب – أصحابي – نا الفاعلين – نون المضارع)، ومعالم هذه المشاركة جاءت من خلال ممارسة (الصيد، الغناء، الشواء، الشرب) مع الصحب لتؤكد الراحة التي خالجت نفسه والاطمئنان بهم، فما الطمأنينة والسكون إلا في هذا النوع من المشاركة، مشاركة الخلان.

إن لجوء الشاعر إلى خلق هذا الجو الممتع المؤنس إسعاد لنفسه وإشغال لها عن الأجواء السياسية المضطربة التي كانت تعيشها الأندلس في فترة الفتنة.

ومع سقوط الأوطان وتهدم الحياة وضياع الأمن والاستقرار يفقد الناس كثيرا من مقومات الحياة ليست المادية فحسب بل المعنوية أيضا إذ تتبدل الأخلاقيات وتسقط القيم وتنهار المبادئ وتنتشر النفعية وينعدم الصدق(١).

"على أن فكرة تأثر الشاعر بمحيطه السياسي والاجتماعي، ينبغي ألا ينظر إليها معزولة عن المؤثرات الأخرى الطبيعية والثقافية، إلى جانب الاستعداد الذاتي، فهي جميعها مؤثرات تتفاعل لتنتهي في النهاية إلى صبغ العمل الأدبي بكثير من ألوانها"(٢).

وَلمّا هَبَطْنَا الغَيْثَ تُذْعَرُ وحْشُهُ ... على كُلِّ خَوَّارِ العِنانِ أَسِيلِ

وَثارَتْ بَناتُ الأَعْوَجِيّاتِ بالضُّحَى ... أَبابِيلَ مِن أَعْطَافِ غَيْرِ وَبِيلِ

(١) علي، إيمان أنور حسن، المكان في شعر ابن شهيد الأندلسي (قرطبة نموذجا)، المجلة الدولية للدراسات اللغوية والأدبية العربية، المجلد: الثالث، العدد: الثاني، الأردن، حزيران، ٢٠٢١م، ص٩٣.

(٢) الحسيني، أ.د. قاسم، الرؤية النقدية في الإبداع الشعري الأندلسي (قراءة في المكونات)، ط١، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ٢٠١٦م، ص٦٦.

مُسَــوَّمةً نَعْتَــدُّها مِــن خِيارِهــا ... لطَــرْدِ قَنِــيصٍ أَوْ لطَــرْدِ رعِيــلِ
إذا ما تَغَنَّى الصَّحْبُ فَوْقَ مُتُونها ... ضُــحيّا أَجابَــتْ نَحْــتَهُمْ بصَــهِيلِ
نَــدُوسُ بهــا أَبْكــارَ نَــوْرٍ كأَنَّــهُ ... رِداءُ عَــرُوسٍ أُوذِنَــتْ بحَلِيــلِ
رَمَيْنا بها عرْضَ الصُّوارِ فأَقْعَصَتْ ... أَغَــنَّ قَتَلْنَــاهُ بغَيْــرِ قَتِيــلِ
وبــادَرَ أَصْــحابي النُّــزُولَ فأَقْبَلَــتْ ... كَرادِيسُ من عَضِّ الشَّواءِ نَشِيلِ
نُمَسِّــحُ بــالجودان مِنــه أَكُفَّنــا ... إذا مــا اقْتَنَصْنا منــه غَيْــرَ قَلِيــلِ
فقُلْنــا لســاقِيها أَدِرْهــا سُــلافةً ... شَمُولاً ومِن عَيْنَيْكَ صِرْفَ شَمُولِ
فقــامَ بكأسَــيْهِ مُطيعــاً لأَمْرِنــا ... يَمِيــلُ بــه الإِدْلالُ كُــلَّ مَمِيــلِ
وشَعْشَــعَ راحَيْــه فَمــازالَ مــائِلاً ... بــرأْسٍ كَــرِيمٍ مــنهُمُ وتَلِيــلِ
إِلَــى أَن ثَنــاهُمْ راكِدِينَ لِمــا احْتَسوا ... خَلِيعِينَ مِن بَطْشٍ وفَضْلِ عُقُولِ
نَشاوَى على الزَّهْراءِ صَرْعَى كأَنَّهُمْ ... أَساطِينُ قَصْرٍ أَوْ جُذُوعُ نَخِيلِ[1]

ولا تقتصر مشاركة الأصدقاء والخلان على الصيد وشرب الخمر، بل تتجاوز ذلك إلى مشاركة صحابه له **لهوه وعبثه**، فهم يتصفون بأنهم فتية، ووصفهم بالفتوة متكرر كذلك عند الشاعر، وهم ينصرونه سواء أكان على حق أم على باطل. فالصديق الحق كما يرى هو الموافق فيما يحب ويشتهي، وليؤكد هذه الفكرة يستلهم من التراث الجاهلي مكانة لقيط بن يعمر في دارم ونصحه لقومه، فمكانة ابن شهيد العالية بين صحابه كتلك المكانة والمنزلة. والاستلهام من التراث نقطة يتكئ عليها الشاعر ليؤكد فكرته.

فالمشاعر والأحاسيس والمفاهيم لا تنتمي في واقع الأمر إلى الفرد، بل يتقاسمها الكل، بحيث أن ما يحتكم في الوعي هو العنصر المشترك

(١) الديوان، ص١٤٠-١٤٢.

لا الخاص[1]. إن استشعار النصرة والمعونة من الأصدقاء له حتى لو كان على باطل يجعله يجد الراحة والاطمئنان، ومقوٍ للانتماء العاطفي.

وقد وظف الشاعر علم العروض للدلالة على اتصال مشاركة أصدقائه له، فجعل البيت الثاني مدوراً (لقيط)، فحتى لو كان الأمر يقتضي التوقف والانقطاع إلا أن هؤلاء الأصدقاء يتبعونه مهما كلف الأمر، وهذا يشعره بالفخر والسطوة.

طارَدْتهُنَّ بفِتْيةٍ حُرْدٍ على حرْبِ المُسالِمْ
وكأَنَّني فِيهِمْ لَقِيـ ـطٌ قاد مِن أَحْياءِ دارِمْ[2]

ومن الآليات التي اتبعها ابن شهيد تعبيراً عن الصداقة وهو نوع أخص من أنواع المشاركة، وهو تخصيص بعض الأصدقاء بالمخاطبة والحديث، هو مخاطبة ومشاركة الصاحب أو الصاحبين، وأسلوب مخاطبة الصاحبين يعود به تاريخياً ويصله بتراثه، حيث مخاطبة الصاحبين في الأشعار القديمة، والنداء والمخاطبة كذلك يولّد حواراً.

ويلاحظ أنه في جميع مخاطبات الصاحب أو الصاحبين يبدؤها بنداء، وأداة النداء تارة تكون ظاهرة وأخرى مضمرة، وهذا ليس أمراً اعتباطياً بل هو علامة تكريس إيحاء القرب في المخاطبة، ويؤسس بعداً إشارياً لإيحاء الاطمئنان.

فمرة نادى المفرد (يا صاحبي)، وذلك في الأبيات التي طلب أن تكتب على شاهد قبره، وذلك لأنه يقصد نفسه، أو إشارة إلى أن كل إنسان سيحاسب وحده وعن نفسه، فهذا الصاحب شاركه في تذكر ليالي اللهو واللذة ومتع الدنيا، وكذلك يشاركه طلب الرحمة من الله.

(١) هياجنة، محمود سليم، الاغتراب في القصيدة الجاهلية، ص٢٣.
(٢) الديوان، ص١٥٦.

ويلاحظ التكثيف الشعوري من المطلع بحشد أساليب إنشائية متنوعة (نداء–أمر–استفهام)، وكذلك افتتاح القصيدة بالنداء وختمها به (يا صاحبي – يا رب).

والمتأمل في المقطع يجد ازدياد وتصاعد حدة التوتر لدى الشاعر منذ بداية المقطع ثم ختمه بالسكينة والاطمئنان، فبدأ بالقيام من القبر واستحالته حتى يأتي الوقت المحدد، ثم تَذَكُّر متع الدنيا وأنها كانت وبالاً وهلاكا، وختم بالأمن وهو طلب الرحمة والمغفرة من الله. فالأبيات عامرة بالألفاظ المنتقاة الملائمة للموقف.

ولا شك في أن حرص الشعراء على كتابة نصوص الرثاء بالشعر على قبورهم يُرد إلى حبهم لذواتهم واعتزازهم بأنفسهم، وهو اعتزاز بالحياة في آن، إنهم في ذلك يعبرون عن رفض خفي وغير مباشر لمغادرتها، وبالتالي فهم يعبرون عن رغبتهم في البقاء على الأرض وبين الناس على هذه الصورة بعد أن أصبحوا تحتها في الصورة المعروفة من الزوال والامحاء المادي، إنه رغبة في تحقيق الخلود في هذه الصورة المعنوية صورة الذكر الحسن، خاصة وإنهم يقدرون ما للشعر من أثر سحري في النفوس ومن قدرة على البقاء والتداول عبر الأزمنة، أكثر مما للنثر في هذين الأمرين(١). ويقينا هذا ينطبق على ابن شهيد صاحب النفس الأبية الطموحة.

يـــا صـــاحِبِي قُـــمْ فَقَـــد أَطَلْنَـــا ... أَنَحْـــنُ طُـــولَ المَـــدى هُجُـــودُ
فقـــالَ لـــي لـــن نَقُـــومَ منهـــا ... مـــا دامَ مِـــن فَوْقِنـــا الصَّـــعِيدُ
تـــــذكُرُ كَـــــمْ لَيْلَـــــةٍ لَهَوْنـــــا ... فـــــي ظِلِّهَـــــا والزَّمَـــــانُ عِيـــــدُ
وكَـــمْ سُـــرُورٍ هَمَـــى علَيْنَـــا ... ســـــحابةً ثـــــرّةً تجُـــــودُ

(١) رحيم، مقداد، رثاء النفس في الشعر الأندلسي، الأردن: جهينة للنشر والتوزيع، ١٤٣٣هـ–٢٠١٢م، ص١١٦.

كُــلٌّ كــأَنْ لــم يكُــنْ تَقَضَّــى وشُــــوْمُه حاضِــــرٌ عَتِيــــدُ
حصَّــــلَه كاتِــــبٌ حَفِــــيظٌ وضــــمَّهُ صــــادِقٌ شَــــهِيدُ
يــــا وَيْلَنَــــا إنْ تَنَكَّبَتْنَــــا رَحْمَــــةُ مَــــن بَطْشُــــهُ شَــــدِيدُ
يــا ربِّ عفْــواً فأَنْــتَ مــوْلىً قَصَّــر فــي أَمْــرِكَ العبيــدُ[1]

أما الصاحبين (المثنى) فناداهما وطلب مشاركتهما له فيما يهواه عمليا بالمرور على ديار المحبوبة وعدم منعه من البكاء على فراقها، بل يشاركانه وجدانياً تأنيساً لقلبه في البكاء عليها. كما يناديهما أن يَشْتَمَّا رائحة ديارها، فالرائحة الطيبة مما يدخل الراحة على النفس، وهنا التفات إلى أثر الرائحة وربطه بالمكان. ويطلب منهما أن يمرا على مكان وجود الحسناوات.

فالوقوف يسوغه الاستعطاف ومشاركة المتألم المتوجع، وعدم تركه يتألم وحده، إذ المشاركة في المواقف الجلل تخفف المصاب، أضف إلى ذلك أن بث الحزن لمن أراد منهم الوقوف، فيه تخفيف كذلك[2].

فلا يهم إن كان المرور بديار المحبوبة حقيقياً أو مجازياً، وإنما الذي يهم هو حال المشاركة من قبل الأصدقاء. والعاطفة هنا متفجرة حسرة وألما وحزنا، لذلك انهملت دموعه، "إن تأمل وقفة الشاعر الطللية هذه يفضي إلى القول بوجود نغمة حزينة بداخلها ملفوفة في زي التشوق والحنين"[3].

خَلِيلَيَّ عُوجا بارَكَ اللَّهُ فيكما بدارتِهـا الأُولـى نُحَــيِّ فِناءَهَــا
ولا تَمْنَعانِي أَنْ أَجُودَ بأَدْمُـعٍ حَوَاها الجَوى لمّا نَظَرْتُ جِواءَهَا[4]

(١) الديوان، ص٩٨-٩٩.
(٢) هياجنة، محمود سليم، الاغتراب في القصيدة الجاهلية، ص٨٧.
(٣) الحسيني، أ.د. قاسم، الرؤية النقدية في الإبداع الشعري الأندلسي، ص١١٣.
(٤) الديوان، ص٨٢.

وقال:

أَعِينا امْرَءاً نَزَحَتْ عَيْنُهُ ولا تَعْجَبا مِن جُفُونٍ جِمادِ[١]

وقال:

يا صاحِبَيَّ إذا وَنَى حادِيكُمَا فَتَنَشَّقَا النَّفَحَاتِ مِن ظَيَّانِهَا
وخُذَا لِمُرْتَبَعِ الحِسانِ فرُبَّمَا شَفَعَ الشَّبَابُ فصُرْتُ مِن أَخدانِهَا[٢]

يلاحظ مما سبق أنه نادى الصاحب المفرد عند حديثه عن القبر، والصاحبين عند ذكر المحبوبة، فالسكينة في مخاطبة المفرد ومشاركته أنه سيكون مصغياً وأكثر انتباها لما سيذكره الشاعر، وخاصة أن الأمر متعلق بطلب العفو من الله بعد ذكر المتع واللذائذ، أما السرور في مخاطبة الصاحبين، أن المشاركة في تلك الأمور التي ذكرها كلما كثر العدد فيها زادت المتعة واللذة.

لكن ابن شهيد يفجؤنا أنه ينادي الصديقين (المثنى) ثم يذكر الموت وليس المحبوبة، والعلة في ذلك أنه يصور للصاحبين ألم الموت، ثم يطلب منهما نقل هذا الموقف والحال إلى صديقه ابن حزم، فهما وسيلة لإبلاغ الرسالة له، ولكي يكون الخبر آكد وأصدق لابد له من شاهدين، وإخبار صديقه بما يعانيه من الآلام سكون لنفسه وطمأنينة لها (كما سيأتي عند الحديث عن المرض) لأن الصديق سيشفق عليه ويتبع ذلك بالدعوات.

ويُطرح هنا تساؤل: هل الصديقان حقيقيان على اعتبار أن أقل الرحلة ثلاثة، أم هو حوار الذات بخيرها وشرها، أم هما وهميان؟ ويلاحظ أن لفظة "المصاحبة تعني المرور العابر غير المستمر ... وهي توحي بعدم بناء علاقة متينة"[٣].

---

(١) الديوان، ص٩٧.

(٢) الديوان، ص١٦٦.

(٣) الدغيري، د إبراهيم علي، أنماط العلاقة بين الشعراء والذئب من العصر الجاهلي حتى سنة ٤٥٠هـ، مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، محرم ١٤٣٦هـ – أكتوبر ٢٠١٤م، المجلد ٨، العدد ١، ص١٥٦.

خَلِيلِـيَّ مَـن ذاقَ المَنِـيَّـةَ مـرَّةً فَقد ذُقْتُها خَمْسِينَ قَوْلَـةً صادق
كـأَنـي وَقـد حانَ ارْتِحالِيَ لـم أَفُزْ قَدِيماً مِن الدُّنيا بلَمحـةِ بـارقِ
فمَن مُبْلِغٌ عَني ابْنَ حَزْمٍ وكانَ لي يَداً في مُلِمَّاتِي وعِنْدَ مَضَايقِي[1]

فمشاركة الأصدقاء في الحزن واللهو والصيد وغيره علامة على تكيف الشاعر مع مجتمعه، فهو لا يشعر بعزلة عنهم وإنما اندماج معهم، فلا يشعر بقلق أو إحباط وإنما سعادة واطمئنان. ومشاركة الأصدقاء حتى في لحظات الحزن والألم سكن اجتماعي يجعل نفسية الشاعر مستقرة مقبلة على الحياة والعطاء.

المطلب الثالث: صاحب صفات حسنة:

هنا مظهر آخر من مظاهر الصداقة، وهو اتصاف الأصدقاء والخلان بالصفات الحميدة، الحسية والمعنوية، الخَلقية والخُلقية، ومعلوم أن الإنسان يتأثر بمن يجالس، فهذا أثر على المُجالِس، ولكن ما أثر اتصاف الصديق بالصفات الحسنة على الشاعر أو الإنسان عموماً؟ إن معرفة الإنسان أن أصدقاءه يتصفون بالصفات الحسنة يشعره بالأمان والراحة لعلمه أنه عندما يحتاجهم سيكونون إلى جانبه، فإذا كانوا كرماء يجدهم معه إذا افتقر، وإن كانوا شجعاناً ألفاهم ينصرونه فيما يريد، وهكذا.

لقد وصف ابن شهيد أصدقاءه بمجموعة من الصفات الجميلة الحسية والمعنوية: الجمال كالنجوم، قول الشعر، النبل، الحكمة، إخلاص النصح، التصابي، الكرم، الشجاعة. ويغلب على هذه الصفات الصفات المعنوية، فالصفات الحسية تتغير وتتبدل، أما الصفات المعنوية فشأنها الثبات والدوام. ولا شك أن هذه الصفات تستقطب الأنظار بجمالها وقوة تأثيرها في نفس الإنسان.

(١) الديوان، ص١٣٤.

لا أسكنَ للنفس ولا أسر لها من **مجالسة** الأصفياء والخلان الذين يتصفون بالصفات الحسنة، وقد جمع هنا بين الحسية والمعنوية، ويختار المكان المؤنس المبهج وهو مجلس السمر، فالمرء لا يسامر إلا المقربين لقلبه الذين يأنس بالجلوس معهم، فهم يتميزون بأفضل الصفات، فهم فتية، صباح الوجوه، جمالهم كالنجوم، كلهم يتقن فن الشعر، نبلاء، كبار السن فآراؤهم صحيحة مصيبة حازمة، يخلصون النصح والرأي لابن شهيد. فسمرهم سمر المتعة المتعقلة لا سمر المتعة الطائشة.

ومجلسه مع أصدقائه وخلانه مجلس يجمع بين الجمال الحسي والمعنوي، فمعنىً هو مجلس أنس ومتعة وسرور، وحساً هو مجلس تذهل عن وصفه العقول، ثم يستطرد في وصف هذا المجلس.

إن كلمات مثل: فتية، النجوم، كلهم، شاعر، نبيل، منذ بداية المقطع حمّلها ابن شهيد دلالات واضحة على هدفه، وهو تميز هؤلاء الصحبة، وتميزهم راحة وفخر للشاعر.

لقد جاء المكان (مجلس الشرب) تجسيداً لاتحاد ذات الشاعر الفردية مع الذات الجماعية، الأصدقاء ذوو الصفات الحسنة.

وفِتْيـــةٍ كـــالنُّجُومِ حُسْـــناً ... كُلُّهُـــمُ شـــاعِرٌ نَبِيـــلُ
مُتَّقِـــدُ الجـــانِبَيْنِ مـــاضٍ ... كأَنَّـــهُ الصّـــارِمُ الصّـــقِيلُ
رامـــوا انْصِـــرافي عـــنِ المَعـــالي ... والغَـــرْبُ مِـــن دُونِهـــا فلِيـــلُ
فاشـــتَدَّ فـــي إثْرِهـــا مِسَـــحٌّ ... كُـــلٌّ كَثِيـــر بهـــا قَلِيـــلُ
فـــي مَجْلِـــسٍ شـــابَهُ التَّصـــابي ... وطـــارَدَتْ وَصْـــفَه العُقُـــولُ[1]

(١) الديوان، ص١٣٩.

وقد ذكر ابن بسام[1] أن هذه الأبيات ذكرها ابن شهيد في مقام التحدي، وعلى هذا فإنه في هذه الأبيات يذكر الصفات الحسنة التي يتمناها في الصديق الحق.

وعند الحديث عن اتصاف الصديق بالكرم ربطه ابن شهيد بالمكان، فالمكان عامل آخر أسهم في تعميق الصداقة في نفس الشاعر، **والمكان** عند الشاعر لا قيمة له دون الأحباب والخلان، فالبستان بمن فيه، لا بذاته، ولذلك عندما وصف الباقلاء في جنان صديقه القاضي ابن ذكوان وصفها بأبهى الصفات وأجملها، ثم انثنى بالحديث عن صاحب هذه الجنان والباقلاء صديقه ابن ذكوان.

إن ابن ذكوان بكرمه وحسن تعامله مع أصدقائه استوجب واستحق المدح، وهذا كان عاملاً مساعداً على التماهي مع عوالم شعرية بعيدة ومبتكرة من خلال الصور التي ذكرها، ولذلك أكثر من الصفات الحسنة التي عددها تأكيداً على إدخال السكينة في نفسه، وهذا ما لامسه الشاعر في الأبيات. وفي الأبيات خيط يتخللها يفصح عن نفس وشخصية مطمئنة تمتلئ سكينة مع هذا الصديق في بستانه.

إن القصيدة "من حيث هي عمل فني ليست إلا تشكيلاً خاصاً لمجموعة من ألفاظ اللغة. وهو تشكيل خاص؛ لأن كل عبارة لغوية سواء أكانت شعرية أم غير شعرية تعد تشكيلاً لمجموعة من الألفاظ، لكن خصوصية التشكيل هي التي تجعل للتعبير الشعري طابعه المميز"[2]. فيُلاحظ في الأبيات أن ابن شهيد لم

(١) الشنتريني، علي بن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، تحقيق: د/ إحسان عباس، ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٣٢/٤.

(٢) إسماعيل، عز الدين، التفسير النفسي للأدب، ط٤، بيروت: دار العودة، ١٩٨٨م، ص٥٦-٥٧.

يستخدم مفردات متميزة، ولكنه شكلها تشكيلاً مميزاً أضفى عليها الشاعرية والتأثير.

إنَّ لآليـــكَ أَحْـــدَثَتْ صَـــلَفَا ... فاتَّخَـــذَتْ مِـــن زُمُـــرُّدٍ صَـــدَفَا
تَسْـــكُنُ دُرّاتُهَـــا البُحُـــورَ وذِي ... تَسْـــكُنُ للحُسْـــنِ رَوْضَـــةً أُنُفَـــا
هامَـــتْ بلُحْـــفِ الجِنَـــانِ فاتَّخَـــذَت ... مِـــن سُـــنْدُسٍ فـــي جِنَانِهَـــا لُحُفَـــا
نثقبهـــا بـــالثُّغُورِ مِـــن لُطُـــفٍ ... حَسْـــبُكَ منَّـــا ببِـــرٍّ مَـــن لَطُفَـــا
جـــازَ ابْـــنُ ذَكْـــوانَ فـــي مَكَارِمِـــه ... حُـــدُودَ كَعْـــبٍ ومـــا بـــه وُصِـــفَا
قَـــدَّمَ دُرَّ الرِّيَـــاضِ مُنْتَخِبـــا ... منـــه لأَفْـــرَاسِ مَدْحِـــهِ عَلَفَـــا
أَكْـــلُ ظَرِيـــفٍ وطُعْـــمُ ذِي أَدَبٍ ... والفُـــولُ يَهْـــوَاهُ كُـــلُّ مَـــن ظَرُفَـــا
رَخَّـــصَ فيـــهِ شَـــيْخٌ لـــه قَـــدَرٌ ... فكانَ حَسْبِي مِن المُنَى وَكَفَى[1]

وإذا انتقلنا إلى صفة أخرى للأصدقاء وهي الشجاعة، فنجد أن من البدهي أن مواطن الحرب والقتال أشد مواطن الخوف والاضطراب، ولكن ما الذي يسكن النفس ويجعلها تطمئن فيها إنه وجود الأصدقاء **الشجعان** حول الإنسان، يحمونه ويثبتونه ويشدون من أزره، فيتذكر ابن شهيد أصدقاءه الأبطال الشجعان من قبيلة زناتة عندما أحاط بهم الموت من كل جانب، وهو يسبغ عليهم صفات البطولة والشجاعة. وسبق عند الحديث عن المشاركة أنهم ينصرونه دائما حتى في عبثه.

يبقى عند الشاعر الانتماء العاطفي لأصدقائه، فبوجودهم يستشعر الأمان، فالأصدقاء حول الشاعر ومعه كان عاملاً على التماهي مع عوالم شعرية بعيدة ومبتكرة، فجاءت صورته باعثة للسكينة والسرور، وتجسيداً للشعور بالأمان والراحة لدى ابن شهيد عَبْرَ أصدقائه الذين يتصفون بالشجاعة والبسالة، فهم خير عون وسند له، ومما يؤكد فكرة الثبات والشجاعة رغم خطورة الموقف استخدام الشاعر للأسماء التي أفادت ثبات الجنان، وقلة الأفعال يستشف منها انعدام

(١) الديوان، ص١٢٧–١٢٨.

الاضطراب والرغبة في الحركة والفرار، فهؤلاء الفتية هم الملجأ والملاذ الذي يحميه، ويجد بقربهم الأمن والاستكنان. لقد تحول المكان في نصه إلى مكان مغاير، فمن المفترض أن يكون مكان خوف واضطراب إلا أنه بقرب الأصدقاء وإحساس الشاعر بنصرتهم له ومؤازرتهم مكان سرور واطمئنان، فعصر الفتنة في الأندلس الذي عايشه ابن شهيد كان عصر خيانات وتقلبات، إن "نوعية الخيال وإمكانياته وفاعليته هي ما تميز الفنان المبدع عن غيره"(١).

وفِتْيةَ ضَرْبٍ مِن زِناتَــةَ مُمْطِــرٍ بوَيْـلِ المَـنايـا طَـعْنُهـا وضِرابُهـا
وَقَفْنا على جَمْرٍ مِن المَوْتِ وَقْفةً صلـيّ لَظـاهُ دَأْبُ قَوْمِـي ودابُهَـا
إذا الشَّمْسُ رامَتْ فيه أَكْلَ لُحُومِنا جَرى جَشَعاً فَوْقَ الجِيادِ لُعابُهَا(٢)

يلاحظ أن ابن شهيد نوّع بذكر الأماكن التي يكون أصدقاؤه معه فيها بين مجلس سمر، وبستان صديق، وساحة حرب. وفي ذلك إشارة إلى أن الأصدقاء الأوفياء أصحاب الصفات الحسنة معه في جميع الأماكن والمواقف فهو يستشعر معهم الراحة والأمان.

ومن الصفات الحسنة التي ذكرها ابن شهيد عن أصدقاه أنهم أصحاب علم وفهم وحجة، وذلك في القصيدة التي مدح فيها صديقه المقرب ابن حزم، حيث ذكر اسمه صراحة المسبوق بضمير المخاطب (وأنت ابن حزم)، دلالة على قربه وشدة محبته، ووصفه بأنه محارب منافح عن الدين بكل قوة كما يحمي المحارب أرضه، فيقول:

وأَنْتَ ابْنَ حَزْمٍ مُنْعِشٌ مِن عِثَارِها إذا ما شَرَقْنا بالجُدُودِ العَواثِرِ

...

فَسَلَّ مِن التَّأْوِيلِ فيهـا مُهَنَّـداً أَخُــو شـافِعِيّـات كَـرِيـمُ العَنــاصِــرِ

(١) عصفور، جابر أحمد، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، القاهرة: دار المعارف، ص١٣.

(٢) الديوان، ص٩٥.

لِمُعْتَزِلِيِّ الرَّأْيِ ناءٍ عن الهُدَى بَعِيدِ المرامِي مُسْتَمِيتِ البَصَائِرِ
يُطَالِبُ بالهِنْدِيِّ في كُلِّ فَتْكَةٍ ظُهُورَ المَذاكِي عن ظُهورِ المَنابِرِ[١]

المطلب الرابع: في مواقف المرض والفراق:

مما لا شك فيه أن فراق الأحباب من أعظم ما يجلي شعور الصداقة الحقة، سواء الفراق المؤقت في الدنيا بالرحيل والسفر، أو الفراق الدائم بالموت.

يقول محمد غنيمي هلال: إن أولى مميزات الشعر هي استثمار خصائص اللغة بوصفها مادة بنائية[٢]، فالكلمات والعبارات في الشعر يقصد بها بعث صور إيحائية، وفي هذه الصور يعيد الشاعر إلى الكلمات قوة معانيها التصويرية الفطرية في اللغة[٣]. وهذا ما سيظهر جلياً ي هذا المطلب حيث جاء التعبير عن مشاعر الصداقة في هذه المواقف، حيث وظف ابن شهيد الألفاظ والكلمات التوظيف الأمثل.

وسيتناول هذا المطلب أربعة مسائل: موقف فراق الشاعر لأصدقائه بموتهم، موقف فراق الشاعر لأصدقائه عند المرض أو الاحتضار، وأخيرا بعد الموت.

المسألة الأولى: موقف فراق الشاعر لأصدقائه بموتهم:

لابد من التأكيد أن فقدان الأصدقاء بالموت أحد أسباب شعور ابن شهيد بالحزن والألم، ومما يزيد هذا الشعور أن يكون الصديق ذا صفات حسنة كثيرة وذا مكانة اجتماعية عالية، فعند ذلك تكون المصيبة بفقده أعظم، ولذلك يعبر

(١) الديوان، ص١١٢.

(٢) هياجنة، محمود سليم، الاغتراب في القصيدة الجاهلية، ص٩٦. نقلاً عن: هلال، غنيمي، النقد الأدبي الحديث، بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٣م، ص٤١٥.

(٣) السابق، ص٩٦. نقلاً عن: الوراقي، السعيد، لغة الشعر العربي الحديث، بيروت: دار النهضة، ١٩٨٤م، ص٦٣.

عن ذلك بصور وتراكيب صادمة، فالشاعر في حالة ألم واضطراب، ويحاول أن يبدي الوفاء لأصدقائه بعد أن غيبتهم يد المنون.

يستهل ابن شهيد أبياته التي ذكر فيها فَقْدَ القاضي ابن ذكوان[١] بجعل البشر والكون يشاركونه المصيبة (نا الفاعلين)، فهو لا يصدق الناعي بل يكذبه فيما يقول، ولهول المصيبة اعتقد الناس ومعهم الشاعر أن الصباح ليل، فكأن نواميس الكون انقلبت، وسيطر عليهم الهم والحزن، ولعظم مكانته وعلمه فكأنه بموته مات الإسلام، والصورة التي رسمها فيها مبالغة من الشاعر، لكن لعظم الخطب وهول المصيبة على نفسه وعلى من حوله عبر بهذا التعبير.

"ويلاحظ على مثل هذه المطالع أنها تعبر عن مضمون القصيدة قبل قراءتها، فإذا شرع القارئ في قراءته للقصيدة فإنما هو يقرأ تفصيلات المضمون الذي نمّ عنه المطلع"[٢]، فمن المطلع يتضح أنها قصيدة حزن ونحيب، وبكاء وتكذيب لخبر الوفاة.

يقول في رثاء القاضي أبي حاتم بن ذكوان:

ظَنَنَّا الَّذِي نادى مُحِقًّا بمَوْتِهِ ... لِعُظْمِ الَّذِي أَنْحَى منَ الرزءِ كاذِبَا
وخلْنا الصَّباحَ الطلقَ لَيْلاً وإِنَّما ... حَبَطْنا خُداريًّا مِن الحُزْنِ كارِبَا
ثَكِلْنا الدُّنا لما اسْتَقَلَّ وإِنَّما ... فقَدْناكَ يا خَيْرَ البَرِيّةِ ناعِبَا
وما ذَهَبَتْ إِذ حَصَّلَ القَبْرُ نَفْسَهُ ... ولكِنَّما الإِسْلامُ أَدْبَرَ ذاهِبَا[٣]

(١) يمكن الإفادة من بحث بعنوان: التحليل الحجاجي لرثائية ابن شهيد الأندلسي لابن ذكوان، للأستاذة ناصف خضرة، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية، المجلد ٥، العدد١٢، ديسمبر ٢٠١٧م.

(٢) عبد الرحمن، د إبراهيم محمد، بناء القصيدة عند علي الجارم، ط١، المنصورة: دار اليقين للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م، ص٢٩.

(٣) الديوان، ص٨٩.

وفي تحقيق آخر للديوان أنه افتتح القصيدة ببيت يذكر فيه "التفجع والأسى على افتقاد صاحبه ... سائرا على طريقة القدماء في استهلال المرثيات بأبيات التفجع وذكر شدة اللوعة ومقدار الحزن ... فهو يصور لنا حزنه ولوعته لفقدان هذا الرجل العلم الذي افتقد معه الصاحب، فأضحى الحزن له صاحبا، فشخص الأسى، وجعل منه إنسانا صاحبا، وهو تعبير مجازي يعبر عن مدى تأثر ابن شهيد بموت صاحبه"[(١)]. فابن شهيد فقدَ صاحباً ولابد للنفس البشرية أن تتخذ صاحبا، لكن الصاحب هنا كان الأسى والحزن.

إذا لَم تَجِدْ إلا الأَسى لكَ صاحِباً فَلا تَمنَعَنَّ الدَّمعَ يَنهلُّ ساكِبا

هَوَت بِأَبي العَباسِ شَمس من التقى وأَمسَى شَهابُ الحَقِّ في الغَربِ غارِبا[(٢)]

ويجعل ابن شهيد الخيار للمتوفى في قرار الرحيل عن الدنيا، ورغم ذلك كان ركابه حمله على أعناق الكرام لكرمه، ولكرم المحمول صار النعش هو الذي يسير وحده، ويحيط به طلبته ومحبوه، فصاروا كأنهم أقاربه في عظم وقع المصيبة عليهم، والملائكة حفت بجنازته واستقبلته بالمصافحة لما يتصف به من كثرة ذكر الله وتوبته له، والناس كثيرون حول قبره كأنهم طير.

وكل ذلك مبالغة في الوصف والتصوير الغرض منه تقوية المعنى وتنميق القول بالتشبيهات والصور، وهو يريد بذلك السمو بموضوع أبياته إلى مرتبة (الأنموذج) وصنع نموذجه المثالي في القصيدة [(٣)]، وتقديم الأنموذج المثالي للصداقة الحقة.

(١) خضرة، ناصف، التحليل الحجاجي لرثائية ابن شهيد الأندلسي لابن ذكوان، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية، المجلد ٥، العدد١٢، ديسمبر ٢٠١٧م، ص٢١١.

(٢) السابق، ص٢١١. والديوان المذكور بتحقيق: محيي الدين ديب، ص٥٠.

(٣) السابق، ص٢١٥.

التعبير بهذه الأمور عند فقد الصديق دلالة على أن الحزن بفقده ليس قاصراً على الشاعر وحده، بل عم جميع المخلوقات من حوله بفقد هذا العالم، ودلالة على مكانته وأثره فيمن حوله، وهذا ينم عن عاطفة صادقة تجاهه.

والمتأمل في ألفاظ القصيدة يجدها ألفاظاً فخمة جزلة، قوية الجرس، تقرع سمع المتلقي، وهي بعد ذلك قادرة على أداء دورها الدلالي في أتم صورة وأجلاها، وتتناسب وطبيعة الموقف الانفعالي الذي سعى الشاعر إلى التعبير عنه(١).

ثم يصور الشاعر وبما يثير كوامن الحزن والشجن، كثرة الدموع المنهلة عليه، ويعدد صفاته الحسنة المتعلقة بعلمه واهتمامه بنشره، وحسن بيانه فيه، ثم يذكر الشاعر ألمه وحسرته على فراقه لما كان له من أثر وفضل على من حوله، ويختم بحثِّ نفسه على الصبر ولزومه. كل ذلك قدمه ابن شهيد ملبساً إياه ثوباً جميلاً من ابتكاراته من خلال الصور والتشبيهات، وهو بذلك يسجل موقفاً ويبدي رأيه ومشاعره تجاه هذا الحدث الجلل وهو فقد الصديق.

وبكل براعة يوظف ابن شهيد المفارقة لإيصال فكرته بل والتهويل منها، فالمخبر بخبر الوفاة محق، لكن لهول المصيبة يظنه كاذباً، ولشدة الحزن اعتقد النهار المنير ليلاً مطبقاً، وحوّل الشاعر أباعد الناس للشاعر أقارباً يحملون جنازته.

وتكثر الكلمات المشحونة بالإجلال والتوقير للقاضي (مَضى شَيْخُنا الدَّفَّاعُ عنَّا النَّوائِبَا، عظيما، ويَعْنُو له رَبُّ الكَتِيبةِ هائِبَا، وذا مِقْوَلٍ عَضْبِ الغرارَيْنِ صارِم ...)، وكل ذلك يؤكد ثقافته الشعرية الموسوعية.

ولمّا أَبَى إلا التَّحَمُّلَ رائِحاً مَنَحْناهُ أَعْناقَ الكِرامِ رَكائِبَا

(١) سيد، مفرح إدريس أحمد، قضايا الإنسان في شعر سعد البواردي دراسة موضوعية فنية، ط١، جامعة أم القرى، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م، ص١٣٠.

يَسِيرُ بِهِ النَّعْشُ الأَغَرُّ وحَوْلَهُ ... أَباعِدُ راحُوا للمُصابِ أَقارِبَا
علَيْهِ حَفِيفٌ لِلْمَلائِكِ أَقْبَلَتْ ... تُصافِحُ شَيْخاً ذاكِرَ اللَّهَ تائِبَا
تخالُ لَفِيفَ النَّاسِ حَوْلَ ضَرِيحِهِ ... خَلِيطَ قَطاً وافَى الشَّرِيعَةَ هَارِبَا
إِذا ما امْتَرَوْا سُحْبَ الدُّمُوعِ تَفَرَّعَتْ ... فُرُوعُ البُكا عن بارِقِ الحُزْنِ لاهِبَا
فمَن ذَا لِفَصْلِ القَوْلِ يَسْطَعُ نُورُهُ ... إِذا نحنُ نَاوَأْنَا الأَلَدّ المناوِبَا
ومَن ذا رَبِيعُ المُسْلِمينَ يَقُوتُهُم ... إِذا النَّاسُ شامُوها بُرُوقاً كَواذِبَا
فيا لَهْفَ قَلْبِي آهِ ذابَتْ حُشاشَتي ... مَضى شَيْخُنا الدَّفَّاعُ عنَّا النَّوائِبَا
وماتَ الَّذِي غابَ السُّرُورُ لمَوْتِهِ ... فلَيْسَ وإِنْ طالَ السُّرَى منه آيِبَا
وكانَ عَظِيماً يُطْرِقُ الجَمْعُ عِنْدَهُ ... ويَعْنُو لَهُ رَبُّ الكَتِيبَةِ هائِبَا
وذا مِقْوَلٍ عَضْبِ الغرارَيْنِ صارِمٍ ... يَرُوحُ به عن حَوْمَةِ الدِّينِ ضارِبَا
أَبا حاتِمٍ صَبْرَ الأَدِيبِ فإِنَّني ... رَأَيْتُ جَمِيلَ الصَّبْرِ أَحْلَى عَواقِبَا
وَما زِلْتَ فِينَا تَرْهب الدَّهْرَ سطْوةً ... وصَعْباً به نُعْي الخُطُوبَ المَصاعِبَا
سَأَسْتَعْتِبُ الأَيَّامَ فيكَ لَعَلَّها ... لصِحَّةِ ذاك الجِسْمِ تَطْلُبُ طالِبَا
لَئِنْ أَفَلَتْ شَمْسُ المكارِمِ عنكُمُ ... لقد أَسأَرَتْ بَدْراً لها وكَواكِبَا[1]

وإن كان ابن شهيد قد أكثر الأبيات في رثاء القاضي ابن ذكوان، فإنه في موضع آخر يبكي صديقاً له ببيت واحد ولا يطيل في الرثاء، لكنه بيت فريد يغني عن قصيدة، فيه تكثيف للفكرة، بأسلوب خبري بسيط دون أي من أدوات التوكيد، لإثبات لصوق هذه الصفة، مُسلِّم بها للمرثي. ومن المعلوم أن لغة "النص الشعري في طبيعتها مكثفة تعتمد على التعدد الدلالي والترميز والتكثيف بخلاف النص السردي الذي تسهب لغته في التفاصيل[2]".

(١) الديوان، ص٨٩-٩٠.

(٢) القرني، عبد الله محمد، شعرية المكان في أعمال القصيبي الشعرية، ص٣٦٠.

قال في رثاء صالح:

وقالُوا أَصابَ المَوْتُ نَفْساً كَرِيمة فقُلْتُ لصَحْبي هذه نَفْسُ صالِحِ[1]

فقد صرح ابن شهيد باسم صديقه في خاتمة البيت، ويقابل هذا التعريف النكرة الموجودة في الشطر الأول (نَفْساً كَرِيمة)، فهذا الوصف المطلق بالكرم وحسن المعشر لا يقع إلا على هذه النفس (نَفْسُ صالِحِ).

وفي قصيدة رثاية أخرى يستهل قصيدته متسائلا هل جاء النبأ من جهة الجنوب، إن تحديد المكان له دلالته، ويدل على الاهتمام الدقيق من الشاعر بأدق التفاصيل لشدة وقع المصيبة على قلبه.

عُرف عن ابن شهيد شيء من التشاؤم، ومعروف عن العرب أنهم يحبون ريح الشمال ويتفاءلون بها، والخبر ورد من جهة الجنوب عكس الشمال فجاء النبأ المفجع، ويتبع ابن شهيد مفارقة الشمال والجنوب بمفارقة أخرى، فالجنوب أهداه، والهدية عادة أمر مبهج مفرح، لكن الجنوب أهداه ظلاماً.

لقد أبدع الشاعر في توظيف المكان والزمان في أبياته، فجهة سكن هذا الصديق الجنوب، وهذا النبأ جاء في وقت متأخر من الليل فلزق واستقر في أعماق نفسه. إن خبر وفاة الصديق أدخل على نفسه الظلمة والوحشة، مثل ظلمة تلطخ أرنبة سوداء بدمائها التي غطتها لأنها ضربت بسيف. يشخص الليل وأنه يبكيه ولشدة ظلمته وظلمة المصيبة على قلبه شبهه بأنه من أهل السودان. إن ابن شهيد في الصور التي ذكرها هنا يكثف من شعوره بهول وقع المصيبة على نفسه، فكل ما يراه سواد في سواد، وذلك تأكيد على الاختلاط الذهني الذي أصابه بوفاة صديقه الكاتب.

ولهول المصيبة تساقطت النجوم سريعة متتابعة، وشبهها بصورة حركية سريعة فكأنها مطاردة بين حمامة تفر من نسر أو صقر يلاحقها ويريد

(١) الديوان، ص٩٦.

اصطيادها، والمرثي يتصف بطيب روحه وصفائها، فهو مثل النهر ينشر الطمأنينة والسكينة في نفوس الآخرين.

ولهول الفاجعة أصاب المرض ابن شهيد وانتشر في جسده، وأحس بدنو الأجل، ثم يصرح متلذذاً باسم صديقه المرثي وأنه كان ينشر علمه وفكره بين الناس وأن هذا العلم مثل الرائحة الطيبة ينتشر سريعاً، ولذلك كثر من يشهد بعلمه وفكره ويذكر مروره وفضله، وخاصة الليل فهو وقت الراحة والسكون، لكن اللمائي كان يسهر للبحث والتفكير لا اللهو والمجون. ولذلك عندما وصله خبر وفاته قال: والليل قام في أثواب نادبة، فكأنه يقابل بين حالين، الليل في حياته وهو يفكر في العلم، والليل بعد وفاته وهو يقدم ظلاما مدقعا.

إن كثرة التشبيهات والصور التي ذكرها ابن شهيد، وذكر المصابين بوفاته يدل على عظمة ومكانة المتوفى، وأثر فقده، فليس ذلك الأثر على ابن شهيد فحسب، بل على معالم الدنيا من حوله.

إن البعد عن الأصدقاء يورث النفس الأسى الحزن والإحساس بالاغتراب. فابن شهيد يستشعر مظاهر الغربة مع جميع ما حوله وخاصة مظاهر الطبيعة، والسبب هو فقد ووفاة الصديق. و"قيام الشاعر العبقري رهن بقيام علاقة معينة بينه وبين مجتمعه"(١).

ومظاهر الطبيعية مبثوثة في الأبيات، وأنها تشاركه بحزنها على صديقه المتوفى، وربما أفاد بذلك ابنَ خفاجة بعده بإدخال الطبيعة المبهجة في الرثاء المحزن. "وهنا تبدو الإشارة ضرورية إلى قضية أساسية ونحن نتحدث عن **الطبيعة** باعتبارها مؤثرا في بنية القصيدة الأندلسية، وهي أن هذا المؤثر اصطبغ بالأحاسيس والمشاعر الظرفية السار منها والمحزن"(٢).

(١) سويف، مصطفى، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر الخاصة، ط٤، دار المعارف، ص١٢٦.

(٢) الحسيني، أ.د. قاسم، الرؤية النقدية في الإبداع الشعري الأندلسي، ص٣٠.

والقصيدة كما يلاحظ مشحونة بالحزن والأسى، وربما "ضاعف من الشجى فيها علمه بأن ساعته هو أيضاً آتية عن قريب"[(١)]، فهي مما قاله في أخريات حياته بعد إصابته بالفالج.

قال في رثاء الكاتب أبي جعفر بن اللمائي:

أَمِــن جَنــابِهِمُ الــنَّفْحُ الجَنُــوبِيُّ ... أَسْرَى فصاكَ بـه فـي الغَوْرِ غارِيُّ

أَهْــدَى إِلــيَّ ظَلامــاً رَدْعَ نافِجــةٍ ... أَدْمــاءَ شَـقَّ بهـا الـدّأماءَ هنْـدِيُّ

واللَّيْـلُ قـد قـامَ فـي أَثْـوابِ نادِبـة ... كأَنَّــهُ فَـوْقَ ظَهْـرِ الأَرْضِ نُــوبِيُّ

والــنَّجْمُ تحْسَــبُهُ قــدّامَ تابِعِــهِ ... حَمامــةً رامَهـا فــي الجَـوِّ بــازِيُّ

وجَـدْوَلُ الأُفْـقِ يَجْـرِي فـي مَنافسِـهِ ... مـاءٌ سَـقى زَهْـرةَ الخَضْـراءِ فِضِـيُّ

فقُلْتُ والسُّقْمُ مَنْشُورٌ عَلى جَسَدِي ... يحْدُو الرَّدَى ورِداءُ العَيْشِ مَطْوِيُّ

أَهْـدَى اللَّمـائِيُّ مِـن أَزْهـارِ فِكْرَتِـهِ ... نَشْـراً فقـالَ الـدُّجى مَـرَّ اللَّمَـائِيُّ

فقِيـلَ مـاتَ فقـالَ اللَّيْـلُ قـاربَ ذا ... فانْهَلَّ مِن مُقْلتي نَـوْءٌ سِماكِيُّ[(٢)]

بعد أن تحدث الشاعر إلى بعض مظاهر الطبيعة وبثها همومه وحزنه، حيث لم يجد صديقاً يحدثه بذلك بعد أن توفي صديقه المقرب، رجع يخاطب نفسه، فكأنه بوفاة ابن اللمائي انتهى الأصدقاء الأوفياء. فانفرد الشاعر وحيداً مستوحشا لا يجد صديقاً سوى عينه متشوقاً لها يريد أن يبثها شكواه، ويشبه نفسه بالجني المتوحد في ثقوب البيت، منفردا لا يراه أحدا.

بعد وفاة صديقه ابن اللمائي يفقد ابن شهيد أي رغبة في الحياة، فهو صديقه الأصدق، وهو لا شك لاحق به سريعاً. ولا ينسى ابن شهيد أن يثني على نفسه ويصفها بالكرامة والشهامة، فالخل الوفي إذا توفي صديقه أهلكه الحزن عليه والشوق له فلحقه سريعاً.

(١) الديوان، ص٥٣.

(٢) الديوان، ص١٧٢.

ويذكر ابن شهيد أنه ليس بمستغرب لو توفي قبل صديقه، وأيضاً وفاة ابن اللمائي قبله ليس بمستغرب فابن اللمائي يتصف بالصفات الحسنة، ومَن هذه أخلاقه لا يعمر طويلاً، فخبر وفاته سيأتي لأصدقائه وأحبابه.

يذكر ابن شهيد أنه لا صبر له ولا طاقة في تحمل وفاة صديقه فهذا بلاء فوق العادة لا يحتمل، فصبره الآن نافر عنه، حتى إنه ليفكر في الانتحار بسبب شعوره بالغربة الشديدة بعد صديقه، وهنا فإن فقد الصديق يدفعه للانتحار، وعدم الرغبة في الحياة. و" كلما تخلخلت الروابط التي تربط الفرد بمجتمعه ازداد اقترابه من الانتحار "(١).

ثم يسأل هل له قدوة وأسوة من السابقين في الانتحار حتى يتأسى به في ذلك ولا تقع عليه ملامة، وفي استخدامه للاستفهام دلالة على رغبته أن يشاركه أحد الإجابة، ويصده عن هذه الفكرة، لكن أنى له ذلك فلن يجد جوابا فقد توفي ابن اللمائي.

يختم ابن شهيد بالرضا والتسليم لأمر الله وقضائه، فهذا التسليم هو السكينة والطمأنينة التي ينشدها.

وبِتُّ فَرْداً أُناجِي مُقْلَتِي شَغَفاً ... كأَنَّني في نُقُوبِ الدارِ جِنِّيُّ

لا عِشْتُ إنْ مُتَّ لِي يا واحِدِي أَبداً ... ومَوْتُنا واحِدٌ لا شَكَّ مرئِيُّ

إنَّ الكَرِيمَ إذا ما ماتَ صاحِبُه ... أَوْدَى بِهِ الوجْدُ وَالثُّكْلُ الطَّبِيعيُّ

إنْ مُتُّ قبْلَكَ لا تَعْجَبْ فذُو أَمَلٍ ... قد حُمَّ مِن دُونِهِ يَوْماً حِمَاميُّ

أَوْ مُتَّ قبْلِي فما مَنْعَاكَ لِي عَجَبٌ ... إنَّ الكَرِيمَ إلى الأَصْحابِ مَنْعِيُّ

زادَ البلاءُ على نَفْسِي فأَعْدَمَها ... صَبْرِي فصَبْرِي عَلَيْكَ اليَوْمَ وحْشِي

حتَّى أَهِمَّ بقتلِي كُلَّ داجِيَةٍ ... يا قَوْم هل رامَ هذا قَبْلُ إنسِيُّ

(١) سويف، مصطفى، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر الخاصة، ص١٢٤.

إنِّـي إلـى اللَّـهِ مِن عُقْبَـى بُليـتُ بهـا جَرَى بهـا الحُكْمُ والأَمْرُ الإلهِـيُّ[1]

المسألة الثانية: موقف فراق الشاعر لأصدقائه عند المرض أو الاحتضار:

والفراق الآخر الذي ذكره ابن شهيد هو فقد الخلان بالوفاة، في المسألة السابقة كانت الوفاة للأصدقاء أما هنا فوفاته هو.

المحور الثاني الذي تناوله ابن شهيد في شعر الصداقة هو ما قاله في لحظات المرض أو الاحتضار، فحوّل ابن شهيد بإبداعه لحظات المرض والموت المحزنة المفزعة إلى لحظات صداقة وسكينة.

"إن أقوى عناصر المؤثر الاجتماعي الذي أثرت في بنية قصيدة رثاء النفس عند ابن شهيد، ذكره الدائم لأصدقائه وأصحابه وتوجيه السلام لهم، والنداء لهم بالسقيا والخير، وذلك في عدد من القصائد، وفي ظني أن هذا ناتج عن مجموعة من العوامل، لعل من أهمها افتقاد ابن شهيد لمشاعر الأسرة وعاطفة الأبوة"[2]، فاستبدلها بإفراغها للأصدقاء.

يبني ابن شهيد قصيدته على الصداقة من مطلعها حتى ختامها، ويستفتحها بما ينم عن فرقة وابتعاد (أستودع الله)، فالإنسان غالباً لا يستخدم هذا الأسلوب إلا في لحظات الفراق والوداع، والشاعر في لحظات الاحتضار كما صرح في البيت الأخير (والموت يضغطني). فالكثافة الشعورية لفعل فراق إخوانه تظهر وتتنامى منذ البيت الأول.

---

(١) الديوان، ص١٧٢-١٧٣.

(٢) المالكي، أ.د. سعيد بن مسفر، رثاء النفس في شعر ابن شهيد الأندلسي: المؤثرات والسمات، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، م ٢٧، ع ٥، ص ص: ١٦٩ – ١٨٧، ٢٠١٩م، ص١٧٩.

راسل ابن شهيد "أصدقاءه، يشكو حالته إليهم، عسى أن يجد عزاءه فيهم، ويجد من يخفف عنه ضيق نفسه، فهو يشتاق إلى أهله وأصدقائه في حياته قبل مماته"(١).

يبدأ الشاعر بالحديث عن الصحاب عموما وتعداد صفاتهم الحسنة، ويخص منهم واحداً له مكانة خاصة في قلبه (وكوكباً لي منهم)، فعندما يبتعد عنه سرعان ما يجد حرارة الشوق له، لكن هذا الأمر (كان–كنا)، فيشرع في بيان مظاهر هذا الفراق والاغتراب الذي تم، فصروف الدهر والموت فرقت بينهما، وهذا أمر طبعي فلا أحد خالد فيها. لكن الشاعر يبقى على أمل تجدد الوصل معه مرة أخرى إن نهض من فراش المرض والموت، وإن توفي فسيلحق به صديقه مهما طال عمره فيلتقيان أخرى. ولصدق محبته له يدعو الله على من يعامله بسوء وشر، ويعلل سبب محبته بأنه كان يتصف بمراعاة ابن شهيد ولا يخون الصداقة، ويوضح ابن شهيد أنه كذلك يبادله هذه المشاعر دون أن يخل ذلك بشيء من الأدب وحسن اللياقة بينهما ويخرجه عنها.

ثم يعود ويؤكد الفرقة وحتميتها، وأنها قسر لا اختيار، ورغم سكرات الموت وصعوبتها فيغتنم أي فرصة كي ينظر إليه مرة أخرى نظرة تعيد له رمق الحياة، وفي ذلك دلالة على ثقل الزمن وتعميق أثره على نفس ابن شهيد. فهو يحاول التشبث بالحياة خوفاً من مفارقة الخليل.

إن تكرار صورة تفريق الدهر والأيام بينهما والإلحاح عليها ليدل على شدة حرقة الشاعر من هذا الأمر وعدم اختياره له، فهو فراق مكره عليه لا يد له فيه.

يقول في وداع الإخوان، وهي "عمل قيم يختم بها حياته ويجعل منها كلاً فنياً متكاملاً، والقصيدة تبدو كوداع يوجهه الشاعر إلى أصدقائه"(١).

(١) بروال، إلهام، تجليات الاغتراب في شعر ابن شهيد (٣٨٢هـ–٤٢٦هـ)، إشراف: أ.د. أحمد كامش، مجلة الآداب والحضارة الإسلامية، المجلد: ١٢، العدد: ٢٤، السنة: ٢٠١٩م، ص١٢١.

إن الألفاظ والصور التي ذكرها هنا تتمركز حول الفرقة، وتطغى عليها نبرة الحسرة والألم.

أَسْـتَوْدِعُ اللَّــهَ إِخْـوَانِي وعِشْـرَتَهُم ... وكـلَّ خِـرْقٍ إِلــى العليــاءِ سَـبّاقِ
وفِتْيَــةً كنُجُــومِ القَــذْفِ نَيِّــرهُمُ ... يَهْـدِي وصـائِبُهُمْ يُـودى بـإِحْراقِ
وكوْكَبــاً لِــيَ مــنهمْ كــانَ مَغْرِبُــهُ ... قَلْبِـي ومَشْـرِقُهُ مَـا بَـيْنَ أَطْـواقِي
اللَّــهُ يَعْلَــمُ أَنِّــي مــا أُفَارِقُــهُ ... إلا وَفِـي الصَّدْرِ مِنِّي حَرُّ مُشْتَاقِ
كُنَّــا أَلِيفَــيْنِ خــانَ الــدَّهْرُ أُلْفَتَنَــا ... وأَيُّ حُـرّ علـى صَرْفِ الـرَّدَى بـاقِ
فـإِنْ أَعِـشْ فلعـلَّ الـدَّهْرَ يَجْمَعُنَـا ... وإِنْ أَمُـتْ فَسَيَسـقِيهِ كَـذَا السّـاقِي
لا ضــيَّعَ اللَّــهُ إلا مَــن يُضِــيِّعُهُ ... ومَـن تَخَلَّـقَ فِيــه غَيْـرَ أَخْلاقِــي
قَد كـانَ بَـرْدِي إِذا مَـا مَسَّنِي كلفٌ ... لا يَــثْلُمُ الحُــبُّ آدابِــي وأَعْرَاقِــي
حتَّى رَمَتْنَا صُرُوفُ الدَّهْرِ عن كَثَبٍ ... فَفَرَّقَتْنَــا وَهــل مِــن صَــرْفِه واقِ
إِنِّــي لأَرْمُقُــهُ والمَــوْتُ يَصْــغَطُنِي ... فأَقتضــي فُرْجــةً مُرْتَــدَّ أَرْمَــاقِي[٢]

من أصدق مواقف التعبير عن المشاعر وقت **المرض** فالإنسان في لحظة انكسار وقرب من الموت وفي حالة خوف وهلع، لكن تَذَكُّرُ أحب الناس إلى قلبه يدخل الطمأنينة إلى قلبه، فيكاتبهم ويرسل لهم ويؤكد لهم رغم تعبه وغمه بسبب سكرات الموت أن مستقرهم في قلبه، ويتشوقهم ويتشوق لياليهم الجميلة.

كما يتذكر الماضي القريب الذي عايشه وعاينه، ماضي العز والأمجاد، فيتذكر المنصور ويدعو إلى إيصال سلامه إلى من اتصف بالثأر للإسلام وانتصر له ضد النصارى الأسبان، ويتذكر بسلامه أيضاً ابنه الحاكم المظفر المتصف بالكرم والانتصارات.

=

(١) الديوان، ص٥٥.

(٢) الديوان، ص١٢٩.

وكما عرض الشاعر لصوت الحاضر بأنينه وحزنه فقد كان صوت الماضي رديفه في تعميق هذا الحاضر ورسم معالمه وقرينه في إظهار بشاعته وسوء مآله وذلك حين استعرض روعة هذا الماضي وما كان يعيش فيه الشاعر من رغد ونعيم تناقض مع هذا الحاضر الممض والواقع المحزن(١).

إن تذكر هؤلاء العظماء الذين كانت تربط أسرته بهم علاقة صداقة قوية وهو في لحظات المرض والضعف سكينة لنفسه، فتذكرهم واسترجاع الذكريات يهبه القوة والاطمئنان. لقد التحم ابن شهيد بالقديم، وذلك بإثارة الأجواء التاريخية(٢)، ومن هنا يصبح التاريخ نقطة انطلاق للتغيير، فابن شهيد يتشوق إلى عالم جمالي كان مليئاً بالعز والفخر على أنقاض العالم الواقعي الممتلئ بالحروب والتفرق، فالماضي الجميل المليء بالصداقة الحقة سكينة وطمأنينة. إن العودة إلى التاريخ يجسد انتمائية الشاعر، ويعمق الوعي الثقافي في أذهان المنتمين إلى هذا التاريخ، ويعد وسيلة لربط الماضي بالحاضر(٣).

"وإذا ما تتبعنا أشعاره عن الصداقة قبل موته، وجدنا أن عامل اغتراب صار أعمق بكثير من ذي قبل، وتضخم معه شعوره بالوحدة والانقباض، فارتفعت نزعة التشاؤم عنده"(٤).

قال في رسالة إلى إخوانه في علته:

هذا كِتابِي وكَفُّ الموْتِ تُزْعِجُنِي عن الحياةِ وفي قَلْبِي لكم ذِكَرُ

إنْ أَقضِكُم حقَّكُم مِن قِلَّةٍ عُمُرِي إنِّي إلى اللَّهِ لا حقٌّ ولا عُمُرُ

(١) علي، إيمان أنور حسن، المكان في شعر ابن شهيد الأندلسي، ص٩٠.

(٢) الصعب، أحمد، الغربة في شعر الجواهري – دراسة تحليلية جامعة الكوفة – كلية 2013، مجلة اللغة العربية وآدابها، العدد: ١٦، ص٣٨٦.

(٣) شهاب، رافد سالم سرحان، أثر الغربة والاغتراب في شعر الجواهري دراسة تحليلية، مجلة التقني، المجلد السادس والعشرون، العدد السادس، ٢٠١٣م، ص١١٨.

(٤) بروال، إلهام، تجليات الاغتراب في شعر ابن شهيد، ص١٢١.

لَهفِي على نَيِّراتٍ ما صدعْتُ بها إلا وأَظْلَمَ مِن أَضْوائِهَا القَمَرُ
فاقْرِ السَّلام على المنْصُورِ أَفْضلِ من سعى لثأرِ بنِي الإسْلامِ فانْتَصرُوا
واعطِفْ بها عطْفَةً تهتزُّ مِن كَرمٍ على المُظَفَّرِ فهو الفَلْجُ والظَّفَرُ[1]

المرض:

النفس في حال **مرضها** تكون مكسورة حزينة تتشوق لأي أحد، فكيف إذا كان الصديق المقرب، فالحديث معه سكينة وراحة، ما جعل المرض لحظة تفدية وتعبير عن مشاعر المحبة، فتحوّلت لحظات الألم إلى لحظات أمل.

فابن شهيد في **مرضه** يتذكر أصحابه وخلانه ويطلب إيصال سلامه لهم، ولكن صديقه عمراً له مكانه مميزة فيخصه بأفضل السلام وأنوره، ويحض نفسه للقيام له رغم آلامه وتعبه. وهذا الصديق يتمتع بجميل الصفات فلا يستطيع أحد أن يعاتبه على شدة محبته له وتعلقه به.

ثم يوضح الشاعر أن محبته محبة عملية وليست قولية فقط، فلو قُدر أن يختار الموت أحدهما والأكثر طاعة لخليله فإن ابن شهيد يقبل هذا التقدم فداء لصديقه وإثباتاً لمحبته له، وكذلك الحال مع تراب الأرض إن أحب أكل جسد فإن ابن شهيد يقدم جسده فداء لصديقه. يذكر الشاعر عظم المحبة والمودة التي كانت بينهما واستمرارها إلى أن فرقت بينهما الأيام بأحداثها ونكباتها، فافترقا افتراقاً عظيما مكرهين عليه بنزول الموت وما كان يتوقع الشاعر حدوث هذا الأمر.

إن المطلع يشكل كثافة شعورية لفكرة الصداقة، فسكينته بذكر الصحاب عموماً (الأصحاب أجمعهم) ويوصل إليهم سلامه، ويخص أحبهم إليه (عمراً) بمزيد منه (تسليم)، ووصف هذا التسليم بالنقاء والإضاءة.

(١) الديوان، ص١٠٧.

وابتداء البيتين الأولين بالإنشاء الأمر أضفى عليهما الحيوية والحركة وأقصى عنهما رتابة الأسلوب المباشر(١).

ليس ثمة شك أن المتأمل في النص حق التأمل يدرك أنه دفعة شعورية معبرة عن السكينة والهدوء، فعلى الرغم من أن الموقف موقف مرض وألم ختمه الشاعر بالفراق، إلا أن شعور الطمأنينة مع الصديق متغلغل فيه، حيث بدأه بالسلام وكرر هذا الجذر (السلام – بتسليم)، بل خص صديقه عمراً بثلاثة أوصاف لهذا السلام، (أزكى) و(نور) والتسليم المطلق (تسليم). ثم عبر عن المحبة التي بينهما وحياتهما معاً في أُلفة وهناء حيناً من الدهر.

إن معرفة واستيقان الشاعر نهاية العلاقة بينه وبين صديقه وجميع الأصدقاء في الدنيا وهي الفراق والموت راحة واطمئنان، لأنه فراق اضطرار لا اختيار.

"وقد التزم ابن شهيد بقواعد الشعر الإخواني في إخوانياته من حيث توجيه الخطاب إلى شخص بعينه فيناديه بضميره أو يذكر اسمه ويعبر له عن مشاعر شخصية"(٢). فصرح ابن شهيد في مطلعه بـ(الأصحاب) وذكر اسم صديقه صريحا (عمرا).

بدأ الشاعر نصه بالحديث عن (الأصحاب أجمعهم) وخصهم بشطر فقط، ثم جعل باقي النص كاملاً خالصاً لعمرو (وخص عمراً) وفي ذلك مزيد اهتمام وتكريم له، فقال مخاطباً حبيبه ومسلماً عليه في علته:

إن الأبيات هنا تتمحور حول الراحة والسكينة، وهي مشحونة ببرة المحبة والألفة.

قال ابن شهيد مسلما على حبيبه في علته:

---

(١) الحاوي، سعد أحمد محمد، الصورة الفنية في شعر امرئ القيس ومقوماتها اللغوية والنفسية والجمالية، دار العلوم للطبع والنشر، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص١٣٠.

(٢) رحيم، مقداد، رثاء النفس في الشعر الأندلسي، ص١٥٦.

اقْرَ السَّلامَ على الأَصْحَابِ أَجْمَعهم ... وخُـصَّ عَمْـراً بـأَزْكَى نُـورِ تَسْـلِيمِ
وقُـمْ لــه يــا أَعـزَّ النَّــاسِ كُلِّهِـمُ ... شخْصــاً علــيّ وأَولاهُــمْ بتَكْــرِيمِ
اللَّـهُ جـارُكَ مِـن ذِي مَنْعَـةٍ ظَفِـرَتْ ... منــه اللَّيــالي بعِلْـقٍ غَيْـرِ مَـذمومِ
مــا كــانَ حُبّـكَ إلا صَـوْبَ غادِيَـةٍ ... طِيباً وحاشا لحُبِّي فيكَ مِن لُومِ
إن شاءَ صَرْفُ الرَّدَى تَقْدِيم أَطْوِعنا ... فقـد رَضِـيتُ حَمَـاكَ اللَّـهُ تَقْـدِيمِي
وإنْ أَحَــبَّ الثَّــرَى جِسْــماً ليَأكُلَــه ... أَسْمَحْ بجِسْمِي له يَفْدِيكَ تَعْظِيمِي
عِشْنَا أَلِيفَيْنِ فـي بَـرِّ الهَوى زَمَنـاً ... حَتَّــى رَقِــي بِنَوانــا طــائِرُ الشُّــومِ
فَشــتَّتَتْ نُــوَبُ الأَيّــامِ أُلْفَتَنــا ... قَسْراً ولم يُغْنِهَا ظَنِّي وتَنْجِيمِي[1]

"نحن نعرف عن الشهور الأخيرة من حياة ابن شهيد أكثر مما نعرف عن أية فترة أخرى من حياته"[2] "وفي الشهور السبعة التي مرت بين إصابته بالفالج ووفاته، قام ابن شهيد بتأليف ما لا يقل عن عشر قصائد"[3]، وهي "أخصب فترة خلق أدبي مر بها ابن شهيد"[4]، "وهذه القصاد تركز أشد التركيز على موضوعين مترابطين دائما فيها، هما: الصداقة والموت، فمن الواضح أن الصداقة كانت تعني الشيء الكثير عند أبي عامر"[5].

المسألة الثالثة: بعد الموت:

لابد من التنويه أن **الموت** وما بعده أمر مقلق للنفس البشرية، والشاعر يتخيل ما سيحصل بعد موته، لكن ابن شهيد يلبسه ثوباً قشيباً ويجعله راحة واطمئناناً، فيطلب أن يكتب على شاهد قبره أبياتاً يخاطب بها صاحبه، فاختار

(١) الديوان، ص١٤٩.
(٢) الديوان، ص٥١.
(٣) الديوان، ص٥١.
(٤) الديوان، ص٥١.
(٥) الديوان، ص٥٢.

الشاعر هنا الصاحب وليس الصديق؛ لأنه لم يختر المرافق والمجاور له في قبره، أما الصديق فهناك عملية اختيار واصطفاء.

فالمخاطبة والمحادثة بما في النفس ودواخلها راحة وسكون، وإزالة عما فيها من شك وقلق، و"مواجهة الموت تفضي إلى القلق وهو قلق على كل الحياة، والقلق يقود الإنسان إلى معرفة نفسه وجودا متجها نحو الموت، والقلق وحده يحمل للإنسان حريته الحقة ويحرره من قيود الخسران ويحول أشكال العبث الغريبة للواقع إلى إمكانيته الجوهرية بأن يكون نفسه"(١).

والرد والإجابة من الصاحب أُنس وراحة للنفس لأنها تدل على تفاعل وتجاوب الصاحب معه، فهي تخلق جواً من المحاورة والتفاعل.

يندب ابن شهيد بـ(نا) المتكلمين حاله وحال صاحبه إن لم تصبهم رحمة الله وإنما يصيبهم العذاب الأليم، والصاحب هذا هو الزجالي الذي أوصى ابن شهيد أن يدفن بجواره.

وكما بدأ مقطعه بالنداء ختمه بالنداء، لكن في البدء نادى صاحب الدنيا المعين على بعض الأمور (يا صاحبي)، وفي الختام نادى مالك الملك أن يعفو عفواً مطلقاً عما فعل فهو عز وجل السيد (يا رب عفواً)، والبشر العبيد مقصرون في جنب خالقهم. يُلحظ أن هذا الحوار أدخل الراحة والسكينة إلى نفس الشاعر، فقد تشارك مع صاحب قبره ما في خاطره وتذكر ليالي الأنس والمتعة، وختمها برجاء الله عز وجل.

"الاستعانة بالمكون الحواري في بناء قصيدة رثاء النفس عنده، ربما كان يتمثل في رغبته في إضفاء سمة تعددية الأصوات داخل النص الشعري، وهو في ظني أمر يسهم بفاعلية في وصف حالة اليأس التي يعانيها الشاعر"(٢).

(١) هياجنة، محمود سليم، الاغتراب في القصيدة الجاهلية، ص٢٨.

(٢) المالكي، أ.د. سعيد بن مسفر، رثاء النفس في شعر ابن شهيد الأندلسي، ص١٨٣.

وفي الأبيات يفجؤ ابن شهيد سامعه بصور تتنقل بين أربعة مواقف، الأول مخاطبة صاحب القبر، ثم تعداد متع ولذائذ الدنيا، ثم ينتقل إلى شؤم تلك المتع، ويختم بطلب العفو من الله وغفرانه. فهذا يدل على الانفعال لدى الشاعر وفي ذات الوقت السكينة التي في قلبه، فعلى الرغم من أن المقطع ابتدأ بقلق ومتع وذنوب إلا أن رجاءه في عفو الله هو الذي يحسم هذه الأمور. "ليس ثمة شك أن الكثافة الشعورية العاطفية تستحوذ على كيان الشاعر إنها محاولة خلق توازن مضاد لواقع مرير معيش أو لواقع مجهول آت"[(١)]. وخَتْمُ ابن شهيد أبياته التعلق بالله عز وجل تأكيد على شدة اتصاله به تعالى وعدم انفصاله عنه.

وابن شهيد في هذه الأبيات جمع بين اتجاهين من الاتجاهات الأربع التي يذكرها الشعراء عند الكتابة على قبورهم، التي ذكرها د مقداد رحيم، وهما:

١- اتجاه يتصلون من خلاله بالله ويرجون مغفرته وهم متوجهون إليه،

٢- يقصدون به إلى الحكمة والموعظة الحسنة مما له علقة بالموت[(٢)].

يـا صـاحِبِي قُـمْ فَقَـد أَطَلْنَـا ... أَنَحْـنُ طُـولَ المَـدى هُجُـودُ

فقَـالَ لـي لـن نَقُـومَ منهـا ... مـا دامَ مِـن فَوْقِنـا الصَّـعِيدُ

تـذكُرُ كَـمْ لَيْلَـةٍ لَهَوْنـا ... فـي ظِلِّهَـا والزَّمَـانُ عِيـدُ

وكَـمْ سُـرُورٍ هَمَـى علَيْنَـا ... سـحابةً ثـرّةً تجُـودُ

كُـلٌّ كـأَنْ لـم يكُـنْ تَقَضَّـى ... وشُـؤمُه حاضِـرٌ عَتِيـدُ

حصَّـلَه كاتِـبٌ حَفِـيظٌ ... وضَـمَّهُ صـادِقٌ شَـهِيدُ

يـا وَيْلَنَـا إنْ تَنَكَّبَتْنَـا ... رَحْمَـةُ مَـن بَطْشُـهُ شَـدِيدُ

يـا ربِّ عفْـواً فأَنْـتَ مـوْلىً ... قَصَّـر فـي أَمْـرِكَ العبيـدُ[(٣)]

(١) هياجنة، محمود سليم، الاغتراب في القصيدة الجاهلية، ص١٠٧.

(٢) رحيم، مقداد، رثاء النفس في الشعر الأندلسي، ص١٠٧.

(٣) الديوان، ص٩٨-٩٩.

تذكُر الشاعر لأصدقاه في لحظات الموت، وتذكرهم له بعد موته، وبكاؤهم عليه، وثناؤهم عليه، وتأبينه، وتذكر أيامه، وذكر فضائله، وتحريك مشاعر الأصدقاء الشعراء وغير ذلك مما ذكره ابن شهيد، كل ذلك مما أدخل الطمأنينة والسلوان على الشاعر ومما ينم عن متانة علاقة الصداقة، وصدق عاطفتها.

تكررت لدى ابن شهيد فكرة تذكر الصحاب بعد **الموت**، وهذا الإلحاح من قبل الشاعر يدل على الحنين الذي يعصف بقلبه، ففي لحظاته الأخيرة من الحياة تأمل متعه ولذاته فلم يجدها إلا وبالاً وخسراناً، وأنه مرتهن بما قدمت يداه، ويستحضر فراق أهل الدنيا وبقائه بين أهل القبور، فهو بين أهل المقابر غريب، إلا أنه على الرغم من ذلك يجد الأنس والراحة في تذكر أصدقائه ويدعو لهم، فهم أصحاب الصفات الحسنة كما تقدم، فتيان صباح الوجوه كالنجوم المضيئة، وهم يتصفون بالوفاء لعهد الصداقة، فهم بعد موته يبكون عليه بكاء كثيراً ويعددون صفاته الحسنة، فيعزيهم ابن شهيد أن الموت كذلك أصاب آباءه من قبل، والملفت تعزية ابن شهيد لهم بدل تعزيتهم له، وهذا علامة على شفقته عليهم ومحبته لهم.

تصبو نفس الشاعر الطامحة أن يذكره صحابه حتى بعد موته، بل ليس ذكراً فقط وإنما شوق وثناء عليه، فيكون اجتماع شمل والتئام ووئام بعد الموت، ومثل هذا الصنيع من هؤلاء الأصدقاء يجعل ابن شهيد لا يشعر بالأسى والحزن على فراق الدنيا طالما أن رفاقه يذكرونه بالخير ولن ينسوه، وقد عبر لذلك بإذا التي تتسعمل في حالة الكثرة والجزم بوقوع الشيء، فهو متيقن من ذكرهم له وكثرة ذلك منهم، ونلحظ توظيف الشاعر للألفاظ، فوزن صيغة منتهى الجموع تكرر في بيتين ثلاث مرات (مَصَابِيحِ، الزَّواهِرِ، المواطِرِ) وهذا يدل بلوغ صحبه الغاية في كل شيء، في الجمال والوفاء بالبكاء عليه.

وهذا ما وقع فعلاً، فبعد وفاة ابن شهيد بكاه الشعراء ورثوه، سواء على قبره أو من سمعوا بوفاته(١).

يقول في رثاء نفسه:

سَقَى اللَّهُ فتْياناً كأَنّ وُجُوهَهُـمْ وُجُوهُ مَصَابِيحِ النُّجُومِ الزَّواهِرِ
إِذا ذَكَرُوني والثَّرَى فَوْقَ أَعْظُمِي بكَوا بعُيُونٍ كالسَّحابِ المواطِرِ
يَقُولُونَ قد أَوْدَى أَبُو عامِرِ العُلا أَقِلُّوا فقِدْماً ماتَ آباءُ عامِرِ(٢)

ومما ذكره في لحظات الموت أنه يطلب من يخبر صديقه الحميم ابن حزم الذي كان يناصره في صعاب الحياة، أن يبلغه دعوات الشاعر ووداعه، وأنه مفارق الدنيا فعند المغادرة يقول المسلم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، مثلما يلقي هذه التحية في بداية اللقاء، ويطلب منه أن يثني عليه الثناء الحسن بعد رحيله، وأن يتذكر الأيام الخوالي وأخلاقه العالية، وأن يذكر هذا الثناء عند قبره يحرك به مشاعر وعواطف الموجودين حول القبر، وخاصة أصحاب الشعر فهم أكثر عاطفة وتأثراً من غيرهم، كما أنهم يتصفون بالصفات الحسنة، وأصحاب ذكاء وفطنة، ويتسمون بالجمال من شباب ونعومة، فجمعوا بين حسن الظاهر وجمال الباطن كما سلف ذكره.

وفي التصريح باسم الصديق (ابن حزم) دلالة على الإعزاز والإكرام له.

إن تركيز الشاعر في هذه الأبيات على نفسه وذاته، وهذا أمر طبعي فهو في لحظات الموت ويستحضر ما بعده، ويريد أن يرسخ ويثبّت نفسه في عقل ومسمع خلانه، فنجد ضمير المتكلم تكرر ١٠ مرات في ٤ أبيات.

ويمكن استدرار الدلالات الضمنية بالنظر لكلمات البيتين الأخيرين، فمعظمها كلمات تدل على عدم النسيان والذكر الحسن، والشاعر من خلالها

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، أحمد، تحقيق: د: إحسان عباس، ط٢، بيروت: دار صادر، ١٩٩٧م، ٢٦٣/٣.

(٢) الديوان، ص١١٣.

يجسد اطمئنانه بهذه الأمور التي يطلبها من أصدقائه عموماً ومن ابن حزم خصوصاً.

"وهذه القصيدة التي يخاطب فيها صديق عمره ابن حزم، تعتبر واحدة من عدد قليل يعد على الأصابع من أروع القصائد العربية التي كتبت في أسبانيا، فإن عملية إنكار الذات والتغلب على النفس قد اكتملت عند ابن شهيد"(١).

فمَن مُبْلِغٌ عَني ابْنَ حَزْمٍ وكانَ لي ... يَداً في مُلِمَّاتِي وعِنْدَ مَضَايِقِي
عَلَيْكَ سَلامُ اللَّهِ إنِي مُفارِقٌ ... وحَسْبُكَ زاداً مِن حَبيبٍ مُفَارِقِ
فلا تَنْسَ تَأْبِيني إذا ما فقدتَني ... وتَذْكارَ أَيَّامِي وفَضْلَ خلائِقِي
وحَرِّكْ بِه باللَّهِ مِن أَهْلِ فَنِّنا ... إذا غَيَّبُوني كُلَّ شَهْمٍ غُرانِق(٢)

لا شك أن الصداقة الحقة بلا مراء محفز من محفزات الإبداع وباعث من بواعثه، فإذا سكنت النفس وارتاحت أخرجت إبداعها وجمالها.

لقد كان المؤثر الصحي المتمثل في المرض أقوى المؤثرات وأشدها دافعية على رثاء ابن شهيد لنفسه، فقد عصف بحياته وزلزل أركانها(٣). **ولحظات الموت** لحظات مفزعة مؤلمة للإنسان، ومع ذلك وفي ذلك الوقت، وقت فراق الدنيا، أصدقاؤه حاضرون في ذهنه، فرغم نكبات الدنيا إلا أن مما يخفف مصائبها خلان أوفياء، وحب وغرام.

لقد تعددت وتنوعت مظاهر الصداقة التي ذكرها ابن شهيد في هذا المقطع، فذكر أنهم (الفتيان) وهو فرد منهم (فتى)، وعبر عنهم بالتعريف فهم الأصدقاء المعروفون بهذه الصفة، وعن نفسه نكر الكلمة (فتى)، فهو فرد منهم، وفتوته غير متناهية. وكذلك هو (أخاهم)، ذكر ذلك بصفة الأخوة، وهي من

(١) الديوان، ص٥٦.
(٢) الديوان، ص١٣٤.
(٣) المالكي، أ.د. سعيد بن مسفر، رثاء النفس في شعر ابن شهيد الأندلسي، ص١٧٤.

أعلى وأقوى العُرى في العلاقات، وأضافها لهم بضمير الغائب المتصل دلالة على التلازم بينه وبينهم، وهو على الرغم من اتصافه بالصفات الحسنة (الفتوة) إلا أن الموت اختصه في السن المبكرة (عضه الردى).

إن تكرر صيغ: عليكم سلام الله – عليكم سلام – اقر السلام – تسليم، عند حديثه في مواقف الصداقة لتشي بسمو هذا المعنى الذي يجده ابن شهيد في ساعة الاحتضار ويسيطر على نفسه، ويرجو أثرها كذلك بعد الموت.

وقد تجلى ذلك من خلال هذه الأسطر الشعرية التي قالها في رثاء نفسه وقد عزم على الانتحار:

فمن مُبْلِغُ الفِتْيانِ أَنَّ أَخاهُمُ ... أَخُو فَتكةٍ شَنْعَاءَ ما كانَ شكْلَهَا

علَيْكُمُ سلامٌ مِن فَتًى عضَّهُ الرَّدى ... ولم ينْس عيناً أَثْبتَتْ فيه نَبْلَهَا

يُبِينُ وكَفُّ الموْتِ يَخْلَعُ نَفْسه ... وداخلُهَا حُبٌّ يهوِّنُ ثُكْلَها[1]

لقد خطف المرض لذة العيش التي كان يتمتع بها أبو عامر فلم يكن لكبر سنه أثر يذكر في رثاء نفسه فقد خطفه الموت ولما يبلغ الشيخوخة. ولذا وجدناه يتحسر على عمره الذي انقضى باكرا، وانفرط عقده سريعا[2]. بل وصف أصدقاءه بكبر السن والحكمة.

ويتجلى بوضوح من خلال تحليل إيقاعات نصوص رثاء النفس في الأندلس أن الشعراء الأندلسيين لم يكونوا يفكرون بالأوزان الشعرية ساعة النظم بل كانوا يتركون نفوسهم على سجيتها فجاءت نصوصهم موقعة بحسب إيقاعات تلك النفوس التي تنتظر الموت من حيث الانفعال والهدوء أو القلق والاطمئنان

(١) الديوان، ص١٤٥.

(٢) المالكي، أ.د. سعيد بن مسفر، رثاء النفس في شعر ابن شهيد الأندلسي، ص١٧٥.

أو اليأس والأمل وغير ذلك من المشاعر المتضاربة يحدوهم في ذلك نفوس مطبوعة على قول الشعر حيث لا يعتاص وزن الكلام على المطبوعين(١).

وكذلك القافية فلم يتقيد الشعراء الأندلسيون بنوع منه دون آخر وهم يرثون أنفسهم فكان منها المقيد بكل أنواعه والمطلق بكل أنواعه ولم تكن لديهم تحديدات للموسيقى الخارجية لنصوصهم بل لقد استخدم بعضهم القوافي النادرة ليدلوا بذلك على تنوع قدراتهم على استغلال الجوانب الفنية للكلام بكل طاقاته(٢).

من المعلوم أن الإنسان لا يعلم بعد موته بتفاصيل كثيرة مما يجري لأهل الدنيا إلا ما جاء الشرع بذكره، لكن طلب الشاعر من أحبابه وخلانه تذكره بعد موته، ولا شك أنهم فاعلون، وذلك راحة وسكون لنفسه في حياته وقبل مماته، وإثبات لصدق المحبة والأخوة.

ويتمنى لعل الطائر الذي يكون على قبره يسمع هذا المدح والذكر الحسن الذي يردده الناس ويطربون به، فتذكره بعد موته يدخل السرور على قلبه والراحة، ويطلب من صحابه دوام واتصال الثناء عليه وعدم التوقف مللاً من ذلك وانشغالا بالدنيا ونسياناً له، ويختم الشاعر معترفا بتقصيره **تجاه الله** فهو عالم الخفايا وغفار الذنوب.

عرف عن حياة ابن شهيد بأن اللهو والمجون غلب على معظم فتراته، لكن هذا الأمر تغير برمته وذلك بعد مرضه وشعوره بقرب موته، حيث قوي المؤثر الديني(٣).

وتشكيل اللغة الجديدة يتأتي للشاعر حين يتناول الألفاظ ثم يديرها في نفسه، حتى إذا ما تلاءمت مع تجربته الذاتية، يعيد ترتيبها، ووضعها في سياق خاص به، وإذا المفردات من خلال سياقها ذات معان جديدة، تقول لنا

(١) رحيم، مقداد، رثاء النفس في الشعر الأندلسي، ص٣٩.

(٢) السابق، ص٤٠.

(٣) المالكي، أ.د. سعيد بن مسفر، رثاء النفس في شعر ابن شهيد الأندلسي، ص١٧٧.

مـا لا تقولـه وهـي فـي وضـعها الطبيعـي، إذ إن اسـتخدام الكلمـات بأوضـاعها القاموسية لا ينتج الشعرية، بل ينتجها الخروج عن طبيعتها الراسخة إلى طبيعة جديدة[١]. وهذا ما تجلى عند ابن شهيد في ذكر الهامة في الأبيات التي يخاطب فيها صديقه المقرب ابن حزم، فمعلوم أن الهامة عند العرب طير يطالب بأخذ ثأر المقتول، فكأن ابن شهيد كان يحس أن من يبغضه سيقتله، وهذا ما حصل فعلاً ففي بعض روايات سبب وفاته، فوفاته مقتولاً أدعى إلى تذكره والحزن عليه بعد رحيله.

حاول الشاعر من خلال حديثه مع صديقه المقرب ابن حزم التخفيف عن نفسه ألم الموت والفراق الذي يعايشه، فوجد أن بثه لرفيقه تعزية وسلوان.

ويلاحظ تركيز الشاعر على ذاته و"غالبا ما يقع التركيز في هذه القصائد على ضمير ((الأنا)) وهو إبراز لخصوصية التجربة والذاتية الغنائية الفياضة ويبرز بالتالي تيمة الغربة فالشاعر متوحد في غربته مفرد في تجربته هناك افتقاداً للأليف أو للجماعة، ومن أجل تحقيق التواصل في التخيل يعمد إلى خلق واسطة بين الذات والموضوع"[٢].

عَسَى هامَتي في القَبْرِ تَسْمَعُ بَعْضُه ... بتَرْجِيعِ سارٍ أَوْ بتَطْرِيبِ طارِقِ
فلي في ادِّكارِي بَعْدَ مَوْتي راحةٌ ... فلا تمنَعُونيها عُلالَةَ زاهِقِ
وإني لأَرجُو اللَّهَ فيما تَقَدَّمَتْ ... ذُنُوبي به ممّا دَرى مِن حَقائِقِي[٣]

المبحث الثاني: ملامح مدعي الصداقة:

(١) هياجنة، محمود سليم، الاغتراب في القصيدة الجاهلية، ص٩٦. نقلاً عن: كوهن، جان، بنية اللغة الشعرية، ط١، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٧٦م، ص١٢٩.

(٢) طحطح، فاطمة، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ط١، ١٩٩٣م، الدار البيضاء: مطبعة النجاح، ص٣٤٧.

(٣) الديوان، ص١٣٥.

الدنيا لا تخلو ممن يضطر الإنسان للتعامل معهم، وهؤلاء ليسوا صادقي الأخوة، بل قد يظهرون أمراً والباطن خلافه، وما سيتم عرضه في هذا المبحث تعامل ابن شهيد معهم وموقفه منهم، وأن حقيقة ما يرجوه أن يكون الصديق الحق على خلاف هذه الصفات التي يذكرها هنا.

ولقد كان لتسنم ابن شهيد المكانة العالية، ووصوله للوزارة مرتين، سبباً لوجود الغيرة في قلوب البعض، مما نتج عنه حقد وحسد. ولكن الطريف والجميل أن أعز أصدقائه ابن حزم صار وزيرا معه واستمرت علاقتهما على حب وصفاء. فالذي يظهر أن ابن شهيد لم يكن هو الذي يستجلب العداوات لنفسه بسلوك شان، وإنما سبب ذلك الحقد والحسد من الآخرين.

المطلب الأول: الغربة والاغتراب:

الغربة في الاصطلاح: هي النزوح والبعد عن الأوطان لأسباب سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو دعائية[١].

"ولابد أن هذا الصمم كان عاملاً نفسانياً أدى به إلى انطوائه على نفسه، رغم أن ابن شهيد كان من حظه في مستقبل أيامه أن يحيا حياة اجتماعية حافلة، ولعل هذه العاهة الجثمانية، مضافاً إليها المرارة التي كان يشعر بها حين خابت مطامحه في المنصب وحبطت مساعيه، قد زاد من حدة توتر أعصابه وعمقت ميوله الفنية"[٢]، وبقدر "ما كان جرحه عميقاً بقدر ما تكون صرخة غربته قوية

(١) شهاب، رافد سالم سرحان، أثر الغربة والاغتراب في شعر الجواهري، ص١١٣. نقلاً عن: حور، محمد إبراهيم، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، كلية الآداب، جامعة قسنطينة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ص٦.

(٢) الجمل، إيمان السيد أحمد، المعارضات في الشعر الأندلسي، ط١، عمان–إربد: جدار للكتاب العالمي – عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٦م، ص٣٠٩. نقلاً عن: الطرابلسي، حسناء بو زويتة، حياة الشعر في نهاية الأندلس، ط١، تونس: دار محمد علي الحامي للنشر، ص١٥.

شديدة جلية في شعره. يُنتج جمالاً وإبداعاً ينبع من عمق تجربته، وخاصة إذا كان صاحب قريحة فذة تخدمه وقت الحاجة"[1] كابن شهيد.

إذا علم الإنسان بغدر من كان يثق بهم وخيانتهم له، ضاقت الدنيا بأفقها الرحيب في عينيه، وأحس بغربة مكانية واغتراب نفسي واجتماعي وفكري مع من حوله، ولذلك دار حديث ابن شهيد عن اغترابه مع من يظهرون الصداقة له وموقف الناس منه حول أمرين: ١- الدفاع عن نفسه. ٢- الافتخار بنفسه.

المسألة الأولى: الدفاع عن نفسه:

أشرع بالحديث عن عداء الناس له أو مدعي الصداقة ودفاعه عن نفسه، فذكر في إحدى قصائده حديث أعدائه عنه وشكواه منهم. وقد صرح ابن شهيد نفسه بأسماء ثلاثة أشخاص بذلوا كل الجهد في تحقيره[2].

إن مما يجعل ابن شهيد يستشعر اغتراباً حديث أعدائه أو مدعي الصداقة عنه بالسوء، ويبني ابن شهيد مقطعه على ثنائيات إما متضادة وإما متكاملة، فهم يحقدون عليه وهو قلبه نقي تجاههم، أنصتوا لقوله فوجدوه معجزاً بليغاً، وتعمقوا في حقيقة شعره فلم يجدوا فيه عيبا، فانقسموا إلى فريقين: فريق ينفي عنه هذا الشعر الرائع، والفريق الآخر وقف متحيراً لا يدري، ثم يخبرهم مفاخرا بنفسه معدداً بعض صفاته: فهو طموح للعلم، متفرد فيه، متمكن منه ومن والشعر، ويؤكد ذلك بصورة قريبة إلى أبصارهم وعقولهم، فليس كل من ركب خيلاً دليلاً على أنه فارس متمكن من قيادتها، وليس كل من جرى بها دليلاً على أنه خيال وفارس. ويتحدى أن من أراد التثبت والتأكد من موهبته ومقدرته العلمية والأدبية فإن ابن شهيد جاهز لهذا، ومخبره بحقيقة الأمر.

(١) بروال، إلهام، تجليات الاغتراب في شعر ابن شهيد، ص١١١.

(٢) الديوان، ص٢٨.

إن حياة ابن شهيد "زاخرة بضروب من الصراع لا يحسن التغلب عليها إلا في ميدان التعبير الفني"[١] وإثبات الشاعر مكانته ومقدرته مزيل عنه الاغتراب، وتشكيك الناس في قدرته يدخل عليه الاغتراب، وبالتالي فإن الصديق الحق هو الذي يثق في قدرات صديقه ويدعمه لتنميتها. "والغربة عاطفة تستولي على المرء، فيشعر بألم وكآبة تجاه ما ترك من المفتقدات كالأهل والأحبة والديار، أو شعور بالوحدة وفقدان المكانة الاجتماعية، أو شعور بوحدة الروح في هذا العالم"[٢].

ولسائل أن يقول ألا يعد هذا الفخر وتعداده لصفاته الحسنة مناف للصداقة؟ في الحقيقة لا يعد كذلك، والسبب في ذلك الموقف الذي تم فيه تعداد هذه الصفات، فهو لا يقولها عند صديق مقرب أو يخبر بها خليلاً حميماً، لا وإنما هو يدافع عن نفسه ويدحض تهم (أقواماً تجيش صدورهم علي)، فهو متألم مما يتهمونه به ويقف في موقف تحد. فالفنانون يعيشون "في قلق وكآبة لشعورهم بالبعد عما يهوون، أو يرغبون فيه"[٣]، فابن شهيد يهوى الصداقة الحقة ويرغب الصديق الصدوق، وهو في اغترابه هذا يكون مغتربا داخل وطنه وعن مجتمعه.

ولكن ما علاقة هذا الشعر بالصداقة؟ إن ابن شهيد بأبياته هذه يوحي إلى السامع أن الصديق الحق لا يمتلئ صدره على حميمه إلا بالمحبة والصدق، أما العدو فصدره مشحون غيظاً وحقداً.

(١) سويف، مصطفى، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر الخاصة، ص١٢٦.

(٢) هفتادري، د غلام عباس رضايي، نسب، د علي عدالتي، نويدي، د عبد الوحيد، الحنين والغربة في شعر معروف الرصافي، جامعة بابل، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، العدد: ٣٩، حزيران، ٢٠١٨م، ص٧٦٤.

(٣) شهاب، رافد سالم سرحان، أثر الغربة والاغتراب في شعر الجواهري، ص١١٣.

لقد ظهر اغتراب ابن شهيد في هذه الأبيات من المطلع بل ومن أول كلمة فيها، حيث تعامل مع هؤلاء الأعداء وأنهم غرباء مجهولون فعدل عن استخدام الفعل المسند لفاعله وبدأ بالفعل المبني للمجهول (وبُلِّغْتُ)، فهم غرباء لا يعرفهم ولا يهمه أن يذكرهم، وفي ذلك إشارة وشدة إيحاء بأن التركيز على الخبر لا المخبر. بل وأغفل ابن شهيد الزمان والمكان فلم يعد لهما أهمية، فالتركيز على التهم الموجهة له هنا والتي ولدت لديه إحساساً بالغربة دفعه إلى الفخر بنفسه وتعداد مزاياها.

إن ابن شهيد في أبياته ليؤكد على ازدراء هؤلاء الأعداء وغربتهم عنه، فهو لم يذكر ما وصفوه به من سيء الصفات، وإنما عمد إلى ذكر محاسن نفسه، بل حتى عندما ذكر تهمتهم له بأنه ليس شاعراً ذكر اختلافهم في هذا الأمر بين ناف ومتردد. فـ"كما نلاحظ أنه كلما أمعن في الاغتراب تقدم في استحضار ذاته من جديد استحضاراً قوياً طاغياً، وكأنه بذلك يقوي نفسه ويعيد إليها الثقة بأنه قادر على الخوض في الطريق الذي اختطه لنفسه"[(١)] والرد والعلو على هؤلاء الأقوام.

إن إحساس الشاعر بغربته وانفصامه عن هذا المجتمع (أقواماً) جعله يدخل معهم في تحد ويختم أبياته بذلك، لإظهار الحقيقة وهي تميزه وتفرده عليهم. "يتجسد الشعور بالاغتراب لدى الشاعر عبر مظاهر الحرمان والعزلة الناجمة عن إحساسه بأن أبناء المجتمع لا يواكبونه فكريا"[(٢)].

---

(١) هياجنة، محمود سليم، الاغتراب في القصيدة الجاهلية، ص٧٨. نقلاً عن: الجعافرة، ماجد، الشعر الجاهلي – دراسة نصية تحليلية، ط١، إربد: دار الكندي، ٢٠٠٣م، ص٤٠.

(٢) فارساني، عباس يداللهي، تجليات الاغتراب في شعر معروف الرصافي، مجلة اللغة العربية و آدابها ، المجلد ١، العدد ٢٨ (٣١ ديسمبر/كانون الأول ٢٠١٨)، ص ص. ٥١٨-٥٥٠، ٣٣ص. جامعة الكوفة كلية الآداب، ص٥٢٥.

يقول مشتكياً من أعدائه الواشين الذين كانوا سببا في تسمم أفكار المستعين ضده:

وبُلِّغْتُ أَقْواماً تَجِيشُ صُدُورُهُمْ ... عليَّ وإنِي منهُمُ فارغُ الصَّدرِ
أَصاخُوا إلى قَوْلِي فأسْمَعْتُ مُعْجِزا ... وَغاصوا على سِرِّي فأَعْياهُمُ أَمْرِي
فقالَ فَرِيقٌ لَيْسَ ذا الشِّعْرُ شِعْرَهُ ... وَقالَ فَرِيقٌ أَيْمُنُ اللَّهِ ما نَدْرِي
أَما عَلِمُوا أَنِّي إلى العِلْمِ طامِحٌ ... وأَنِّي الَّذِي سَبْقاً على عرْقِهِ يَجْرِي
وما كُلّ مَن قادَ الجِيادَ يَسُوسُها ... ولا كُلُّ مَن أَجْرَى يُقالُ له مُجرِ
فمَن شاءَ فَلْيُخْبِرْ فإنِّي حاضِرٌ ... ولا شَيءَ أَجْلَى للشُّكُوكِ من الخُبْرِ[1]

المسألة الثانية: الافتخار بالنفس:

لقد وجد ابن شهيد عداء واغتراباً داخل المجتمع القرطبي، ومن أمثلة ذلك ما وقع بينه وبين الوزير أبو جعفر أحمد بن عباس وغيره، فهؤلاء هم مدعو الصداقة.

وإحساس الشاعر بالاغتراب مع من يعايشهم ويدعي الصداقة يدفعه إلى الفخر بنفسه وتعداد مزاياه، وهو يقسم من يفاخرهم قسمين: عامة الناس، وأصدقاؤه، ولكن كيف يفخر على أصدقائه؟ إنه يفعل ذلك لأنه وجد معهم اغتراباً فاضطر إلى ذلك لتوضيح ما يراه، ولا يمكن اعتبار ما ذكر مع أصدقائه فخراً بقدر ما يمكن اعتباره بياناً وتوضيحاً، وكأن ابن شهيد يرسل رسالة مفادها أن الصديق الحق من اتصف بهذه الصفات الحسنة وابتعد عن تلك المعايب.

إن المغترب نفسياً نجده مغترباً اجتماعياً، ذلك أن اضطراب المغترب يعود أكثره بسبب آثار اجتماعية أو بسبب توتر العلاقة بينه وبين المجتمع[2].

(١) الديوان، ص١١٤-١١٥.

(٢) هياجنة، محمود سليم، الاغتراب في القصيدة الجاهلية، ص١٨.

الدافع المحوري الذي أنتج هذه القصيدة هو اغتراب ابن شهيد من عامة الناس وممن يدعون الصداقة والفتوة، مما جعل من الاغتراب القوة الفاعلة، حيث وجهت الشاعر نحو التعامل مع هاتين الفئتين. وبهذا يكون الاغتراب إيجابياً، فمن منابع "الاغتراب عدم التكيف مع الواقع، وتصبح المسافة بين الواقع وحاجات الإنسان بعيدة، ولهذا تدعو الضرورة لتقريب هذه المسافة عن طريق التجاوز"(١)، بل الإبداع والتفوق على المخالفين.

لقد وجد ابن شهيد اغترابا مع مخالفيه فعدد صفاتهم السيئة، واتصافه بما يضادها، فهو يستشعر اغتراباً معاشاً في هذا الواقع، ولعل أول تجليات ذلك انهيار الحياة الاجتماعية (النحن) وبروز فاعلية (الأنا) الفرد. فضمير المتكلم دال على الفخر والاعتداد بالنفس. "إن حركة العبقري تبدأ من حدوث صدع في (النحن)، ويحدث هذا الصدع توتراً عاماً في الشخصية يعمل على دفعها دائما، وتتجه محاولة العبقري إلى تغيير الحواجز لا تحطيمها"(٢) لذلك اتجه إلى الأصدقاء. فهو "يمارس شعورياً نوعاً من عدم الاستقرار يمكن أن يكون قد سبقه استقرار أو يكون، وأن عدم الاستقرار هذا مرجعه إلى بروز الصدع وازدياد شعور الشخص بالحاجة إلى النحن"(٣).

وابن شهيد هنا "يتجه إلى خلق أنماط جديدة من الصور الشعرية، أو محاولة انحراف بالشعر إلى مسارات جديدة وهو ولا شك اغتراب فني"(٤)، فهو يحاول التفرد بصوره التي تطرق لها في المقطع، فهاجس الشاعر الفني هو المسيطر عليه، متوازياً مع شعوره بالاغتراب.

---

(١) الصعب، أحمد، الغربة في شعر الجواهري، ص٣٩٠.

(٢) سويف، د مصطفى، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، ص١٣٠.

(٣) السابق، ص١٣٤.

(٤) ناصر، ياسين عذاب، الاغتراب في شعر بشار بن برد، مجلة آداب البصرة، العدد: ٨٣، ٢٠١٨م ص١٨٨.

وَمـــا أَلانَ قَنَـــاتِي غَمْـــزُ حادِثَـــةٍ ... ولا اسْـتَخَفَّ بحِلْمِـي قَـطُّ إِنْسَـانُ
أَمْضِي على الهوْل قدْما لا ينهنِهني ... وأَنثنِـي لسـفِيهي وهْـو حـرْدانُ
ولا أُقَـــارِض جُهَـــالا بِجهلِهِـــم ... والأَمْـــر أَمْـــرِي والأَيـــام أَعْـــوانُ
أُهِيـب بالصـبْرِ والشـحْناءُ ثـائِرة ... وأَكظِـم الغـيْظ والأَحْقـاد نيـرانُ
وَمـا لِسـانِيَ عِنـد القـوْمِ ذو ملـقٍ ... ولا مقـالِي إِذا مـا قلـت إِذْهـانُ[1]

ثم يتطرق إلى اغتراب مع أصدقائه قد يدفع إليه سوء الفهم، أو عادة الناس تجاه هذه الأمور، وهو قول الحق والصدق في النصيحة حتى لو أغضبت الصديق (الأخ)، فخوف الإنسان من غضب أصدقائه وإخوانه يجعله يعيش اغتراباً وخوفاً من أن يسوءهم قوله. كما أنه لا يغدر ولا ينقلب على صديقه حتى لو كان مضطراً لذلك. فهو ينفي عن نفسه الصفات التي عاناها من المجتمع الذي عاش فيه اغتراباً.

"الشاعر في هذه الأبيات يؤكد عمق الذات باستخدام أنا الذات التي عبر فيها في أكثر من مقطع على تأكيد ذاته"[2].

ولا أَفـوه بغيْـرِ الحـق خـوْف أخِـي ... وإِنْ تـأَخر عنـي وهْـوَ غضـبانُ
ولا أَمِيـل علـى خِلـي فآكلـه ... إِذا غرِثـت وبعْـض النـاسِ ذؤبـانُ
وَدَّ الفتـى مـنهم لـو مـتَّ مِـن يـدِهِ ... وأَنـه منك ضخم الجوْفِ مَلآنُ[3]

وفي تعداد ابن شهيد لصفات الفتوة الحقة إشارة إلى ما يطلبه من صفات في الخليل، لأنها شبه معدومة في عصره وبسبب ذلك يستشعر اغتراباً، وذكر له

(١) الديوان، ص١٦١.
(٢) رومي، جاسم غالي، ملامح الغربة في الشعر المعاصر. ديوان غريب من اليمن، مجلة آداب البصرة العدد ٦١ سنة ٢٠١٢م، ص٩٤.
(٣) الديوان، ص١٦١.

ست صفات حتى يستحق وصف الفتوة. وفي تعداد صفات الفتوة نوع من إعادة التوازن للذات أو للأنا الفردية المنهارة، فكأنه يدعو إلى لزومها والتحلي بها.

إن الفتــوة فــاغلمْ حَــدُّ مطلبِهــا عِـرْض نَقِـيٌّ ونطـق فيــه تِبْيـانُ
بـالعِلمِ يفخـر يـوْم الحفـلِ حامِلُـه وبالعفــافِ غـداة الجمْــعِ يــزدانُ
إن الكــرِيمَ إذا نالتــه مَخْمَصَــةٌ أَبْدى إلى النـاسِ شِبْعاً وَهْوَ طَيَّانُ
يحْنِي الضلوعَ على مِثلِ اللظى حُرَقاً والوجْه غَمْرٌ بماءِ البِشْرِ ملآنُ[1]

ثم يختم مصرحاً ومعلناً اغترابه على نحو صائت (وَما وَجَدْتُ أَخاً)، والسبب في ذلك قلة الأصدقاء المتصفين بالأدب وحسن التعامل، وندرة من يتصف بالأخوة الحقة. وكذلك مما جعله يستشعر الاغتراب التغير والتبدل ممن يدعون الصداقة والأخوة إذا تسنموا المناصب العليا نسوا وتنكروا لأصدقائهم. ولذلك جعله (أخاً) نكرة؛ لتنكره لصديقه وبعده عنه نفسياً.

أَقــلُّ كُــلِّ قَـلِيلٍ خِـلٌّ ذِي أَدَب بَيْنَ الوَرَى وأَقَلُّ النَّــاس إِخْــوَانُ
وَما وَجَدْتُ أَخاً في الدَّهْرِ يَذكُرُنِي إذا سَمَا وعلا يَوْماً به الشَّانُ[2]

إن تعداد ابن شهيد للصفات السيئة السابقة يدل على أنه يكره أن يتصف الصديق الحق بها، فهذه الصفات تجعل الإنسان يحس باغتراب داخل مجتمعه، فهو محارَب محقود عليه مكروه وغيرها، وعلى العكس منها صفات الخل الوفي الذي يدخل الاطمئنان والسكون لنفسه يكون محباً مؤازراً ناصراً معيناً.

وذكر ابن شهيد لهذه الصفات يدل على أنه يرى أنها هي الصفات المثالية في الصديق تجاه صديقه حيث يجد الراحة والأمان.

لقد كان اغتراب الصداقة عند ابن شهيد تجسيداً لألمه النفسي والجسدي، وعبر فيه عن رغبته في تغيير الواقع المعاش.

---

(١) الديوان، ص١٦١-١٦٢.

(٢) الديوان، ص١٦٢.

ويظهر أن اغتراب ابن شهيد كان تمثيلاً صادقاً لهموم ابن شهيد وتهدئة وسكينة له؛ لأنه أخرج ما ففي نفسه من مشاعر مكبوتة وأحاسيس مستترة.

المطلب الثاني: قرطبة والأصدقاء.

عجُــوزٌ لَعمْــرُ الصّــبا فانِيــهْ لهـا فـي الحشَـا صُـورةُ الغانِيـهْ
زَنَــتْ بالرِّجــالِ علــى سِــنِّها فَيــا حبَّــذَا هِــي مِــن زانِيــهْ
تُريــك العُقُــول علــى ضَــعْفِهَا تُــدارُ كمــا دارتِ السّــانِيهْ
فقــد عنِيــتْ بهَواهــا الحُلُــو مُ فهْــي براحتِهَــا عانِيــهْ
تَقَاصَــرُ عــن طُولِهَــا قُونْكَــةٌ وتَبْعُــدُ عــن غُنْجِهَــا دانِيــهْ
تَردَّيْـتُ مِـن حُـزْنِ عيْشِـي بهـا غَرامــاً فَيــا طُــول أَحْزَانِيــهْ[١]

هذه نظرة ابن شهيد لقرطبة، ولا شك أنه كان يحب قرطبة، ولكن بقاءه بها لم يكن للحب فقط بل وصف يعقوب زكي محقق الديوان تعليل غرامه بها بالمخادع وأن حقيقة بقاه فيها هو "أن يبقى قريباً من مركز السلطان حتى ينتفع من أي تغيير في الحكم والحكومة"[٢].

لقد فقدت قرطبة بفقدهم ما كانت تنعم به من صفاء وما كان يحوطها من بهجة وما كان يجللها من سناء وضياء. هؤلاء لا يمثلون قيمة واحدة ولا يمثلون عطاء واحدا ولكنهم جملة من القيم المتراكبة التي تمنح كافة القيم (علماءها حلمائها أدبائها ظرفاءها) وهو ما يشي بعظمتهم وجليل دورهم[٣].

"كلما تغير العالم الخارجي تغير العالم الداخلي، وإذا تغير الداخلي ألفى الخارجي يحتاج إلى بعض التغيير حتى يلائمه"[٤]، إن رحيل الأصدقاء مظهر

(١) الديوان، ص١٦٨.
(٢) الديوان، ص٢٠.
(٣) علي، إيمان أنور حسن، المكان في شعر ابن شهيد الأندلسي، ص٩٠.
(٤) إسماعيل، عز الدين، التفسير النفسي للأدب، ص١٣.

من مظاهر حزن الشاعر، ومما يزيد هذا الحزن هو بقاء آثارهم التي تذكر بهم، وهذا انعكس على نفسية ابن شهيد، فبكي أصدقاءه في قرطبة بعد خرابها، فطالما اختفى الأحبة فمن نسأله عن حالها والذكريات الجميلة بها، فالصحاب افترق شملهم وارتحلوا، كلٌ ذهب في اتجاه فليس هو وحده من افترق عنهم بل الكل افترق عن الكل، بل إن البعض وقعت عليه الفرقة الأبدية في الدنيا بالموت، فلا لقاء معه أخرى في هذه الدار. ولتأكيد الفرقة كررها الشاعر مرتين (الفراقِ – فَتَفَرَّقُوا).

ثم يبدأ الشاعر بتعديل مظاهر النعيم التي كان يرتع فيها أهالي قرطبة ممثلة في الشمل جامع وهو ما يشي بقوة الروابط واحتفاء الشاعر بها إذ تتصدر مجال الرؤية عنده ويخص الشاعر أهلها وهو توكيد على استحقاقهم للحياة على هذه الأرض واختصاصهم بها[1].

ما في الطُّلُولِ مِن الأَحِبَّةِ مُخْبِرُ ... فَمَن الَّذِي عن حالِها نَسْتَخْبِرُ

لا تَسأَلَنَّ سِوى الفراقِ فإِنَّهُ ... يُنْبِيكَ عنهم أَنْجدُوا أَم أَغْوَرُوا

جارَ الزَّمانُ علَيْهِمُ فَتَفَرَّقُوا ... في كُلِّ ناحِيَةٍ وبادَ الأَكْثرُ[2]

لقد نجح الواشون في تحريض علي بن حمود سجن ابن شهيد، كما يقال: الصديق عند الضيق، فعندما يقع الظلم على الإنسان من الحاكم أو المجتمع، يجد حزناً وألماً، ويستشعر أنه مبعد عمن حوله فكرياً وثقافياً، لكن يجد برداً على فؤاده عندما يبث شكواه لأصدقائه وأحبائه الذين يفهمونه. والشاعر في أبياته يذكر أمران شديدا الارتباط بالصداقة وهما: الفراق والاشتياق، ولا يجد من يبثهما له إلا الخلان الفتيان، ويقارن الشاعر بين زمنين الأول في صحبة هؤلاء الفتيان

(١) علي، إيمان أنور حسن، المكان في شعر ابن شهيد الأندلسي، ص٩١.

(٢) الديوان، ص١٠٩.

وأنه كان يجد الراحة والاطمئنان فبوجودهم لم يستطع أحد إيقاع الظلم عليه ولم يكن يشعر بالانفصال عن المجتمع، لكن بعد افتراقه عنهم جاءته المصائب والنكبات، يذكر أنه يتشوق لأصدقائه خارج السجن، فهو مستقر بدار الظالمين في سجن قرطبة مطرود مبعد، ثم يذكر صفات لها والقائمين عليها مما يزيد في غربته ببعده عن أصدقائه، فأصدقاؤه بخلاف هذه الصفات. فتذكر الأصدقاء عند المصائب وأن صفاتهم وسلوكهم بعكس الظالمين جعله يستشعر مضاعفة الألم والظلم.

ومن تلك الازدواجية بين الماضي المزهر والحاضر الحزين انبثقت ثنائية المكان الأليف الذي أحبه الشاعر ووجد فيه نفسه وبين المكان المعادي الذي تنمر على الشاعر وآلمه حتى أحدث شرخا في قلبه وأنيناً في نفسه[١].

فقرطبة جمعت النقيضين عند ابن شهيد، فهي كمدينة نكان أليف، والسجن مكان معادٍ.

ومع هذا الحب الذي عنى الشاعر في قرطبة والذي أجبره على البقاء فيها وعدم الخروج منها لغيرها في أشد الاوقات حلوكة فقد وردت قرطبة في نتاج الشاعر كمصدر للعداء وسبب للألم ومحط للحزن ومبرر للشكوى. لقد ساءت حالة ابن شهيد في النصف الثاني من حياته[٢].

فـراقٌ وسِـجْنٌ واشْـتِياقٌ وذلَّـة وجبَّـارُ حُفَّـاظٍ علـيّ عَتيـدُ

فَمـن مُبْلـغُ الفِتْيـان أَنِّـيَ بعْـدهُم مُقِـيمٌ بـدارِ الظـالِمِين طَرِيـدُ

مُقِـيمٌ بِـدارٍ سـاكنُوها مِـن الأَذى قِيـامٌ علـى جمْـرِ الحِمـام قُعُـودُ[٣]

(١) علي، إيمان أنور حسن، المكان في شعر ابن شهيد الأندلسي، ص٩١.

(٢) السابق، ص٩٢.

(٣) الديوان، ص١٠٠.

النتائج:

انتهى هذا البحث إلى بعض النتائج، كان أبرزها:

تمتعت شخصية بان شهيد بالمحبة الصادقة للصداقة، وبالمقابل كان شخصية استعلائية على مدعيها.

تأثرت الصداقة عند ابن شهيد بالعصر الذي عاش فيه، وهو عصر الفتنة، لذلك عدّد نوعين من الأصدقاء، الوفي والدعي.

لإبراز صفات الصداقة استخدم ابن شهيد آليات متنوعة، كالحوار وتوظيف الطبيعة والخيال وعلوم البلاغة.

ألفاظ ابن شهيد عموما تتصف بالجزالة والغرابة.

صفات الصداقة التي ذكرها ابن شهيد لم تخرج عما ذكره العرب من قبل في ذلك، لكنه تميز بطريقة معالجته الأدبية لذلك وتركيزه على بعض الصفات المرتبطة بعصر الفتنة.

كان سلوان ابن شهيد بعد وفاته في تذكر أصدقائه له بالدعاء له والنظم فيه والثناء عليه.

لم يترك ابن شهيد موقفاً إلا وذكر فيه الأصدقاء، وخاصة في الأوقات التي تستحق ذلك كالمرض والرثاء والسجن وغيرها.

مدعو الصداقة أشد ألماً من العدو الصراح، فواجههم ابن شهيد بالدفاع عن نفسه وإن اقتضى الأمر فالفخر عليهم.

يبرز في شعر البارودي التطابق بين صدق المعاناة وصدق التعبير.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. ابن شهيد، ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعه وحققه: يعقوب زكي، راجعه: د محمود علي مكي، القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.
٢. إسماعيل، عز الدين، التفسير النفسي للأدب، ط٤، بيروت: دار العودة، ١٩٨٨م.
٣. بروال، إلهام، تجليات الاغتراب في شعر ابن شهيد (٣٨٢هـ-٤٢٦هـ)، إشراف: أ.د. أحمد كامش، مجلة الآداب والحضارة الإسلامية، المجلد: ١٢، العدد: ٢٤، السنة: ٢٠١٩م.
٤. بو حوش، رابح، اللسانيات وتحليل النصوص، ط٢، عالم الكتب الحديث، إربد، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
٥. الجمل، إيمان السيد أحمد، المعارضات في الشعر الأندلسي، ط١، عمان-إربد: جدار للكتاب العالمي – عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٦م.
٦. الحاوي، سعد أحمد محمد، الصورة الفنية في شعر امرئ القيس ومقوماتها اللغوية والنفسية والجمالية، دار العلوم للطبع والنشر، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٧. الحسيني، أ.د. قاسم، الرؤية النقدية في الإبداع الشعري الأندلسي (قراءة في المكونات)، ط١، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ٢٠١٦م.
٨. خضرة، ناصف، التحليل الحجاجي لرثائية ابن شهيد الأندلسي لابن ذكوان، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية، المجلد ٥، العدد١٢، ديسمبر ٢٠١٧م.
٩. الدغيري، د إبراهيم علي، أنماط العلاقة بين الشعراء والذئب من العصر الجاهلي حتى سنة ٤٥٠هـ، مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، محرم ١٤٣٦هـ – أكتوبر ٢٠١٤م، المجلد ٨، العدد ١.
١٠. رحيم، مقداد، رثاء النفس في الشعر الأندلسي، الأردن: جهينة للنشر والتوزيع، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.
١١. رومي، جاسم غالي، ملامح الغربة في الشعر المعاصر، ديوان غريب من اليمن، مجلة آداب البصرة العدد ٦١ سنة ٢٠١٢م.
١٢. سيد، مفرح إدريس أحمد، قضايا الإنسان في شعر سعد البواردي دراسة موضوعية فنية، ط١، جامعة أم القرى، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.

١٣. سويف، مصطفى، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر الخاصة، ط٤، دار المعارف.
١٤. الشنتريني، علي بن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، تحقيق: د إحسان عباس، ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
١٥. شهاب، رافد سالم سرحان، أثر الغربة والاغتراب في شعر الجواهري دراسة تحليلية، مجلة: التقني، المجلد: السادس والعشرون، العدد: السادس، ٢٠١٣م.
١٦. الصعب، أحمد، الغربة في شعر الجواهري – دراسة تحليلية، جامعة الكوفة – كلية الآداب، 2013، مجلة اللغة العربية وآدابها، العدد: ١٦.
١٧. طحطح، فاطمة، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ط١، ١٩٩٣م، الدار البيضاء: مطبعة النجاح.
١٨. عبد الرحمن، د إبراهيم محمد، بناء القصيدة عند علي الجارم، ط١، المنصورة: دار اليقين للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.
١٩. عبد الفتاح، علاء فؤاد، الصديق في شعر البارودي بين الواقع والخيال – دراسة موضوعية فنية، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، الإسكندرية، المجلد: السابع، العدد: الثامن والعشرون.
٢٠. عصفور، جابر أحمد، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، القاهرة: دار المعارف.
٢١. علي، إيمان أنور حسن، المكان في شعر ابن شهيد الأندلسي (قرطبة نموذجا)، المجلة الدولية للدراسات اللغوية والأدبية العربية، المجلد: الثالث، العدد: الثاني، الأردن، حزيران، ٢٠٢١م.
٢٢. فارساني، عباس يداللهي، تجليات الاغتراب في شعر معروف الرصافي، مجلة اللغة العربية و آدابها ، المجلد ١، العدد ٢٨ (٣١ ديسمبر/كانون الأول ٢٠١٨)، ص ص. ٥١٨-٥٥٠، ٣٣ص. جامعة الكوفة كلية الآداب.
٢٣. القرني، عبد الله محمد، شعرية المكان في أعمال القصيبي الشعرية، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، العدد: ٥، السنة: الرابعة، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.

٢٤. المالكي، أ.د. سعيد بن مسفر، رثاء النفس في شعر ابن شهيد الأندلسي: المؤثرات والسمات، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، م ٢٧، ع ٥، ص ص: ١٦٩ – ١٨٧، ٢٠١٩م.
٢٥. مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم بشرح النووي، ط٤، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٢٦. ناصر، ياسين عذاب، الاغتراب في شعر بشار بن برد، مجلة آداب البصرة، العدد: ٨٣، ٢٠١٨م.
٢٧. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، أحمد، تحقيق: د: إحسان عباس، ط٢، بيروت: دار صادر، ١٩٩٧م.
٢٨. هفتادري، د غلام عباس رضايي، نسب، د علي عدالتي، نويدي، د عبد الوحيد، الحنين والغربة في شعر معروف الرصافي، جامعة بابل، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، العدد ٣٩، حزيران، ٢٠١٨م.
٢٩. هياجنة، محمود سليم، الاغتراب في القصيدة الجاهلية – دراسة نصية، إربد: دار الكتاب الثقافي، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

مراجع نقلاً عن:

٣٠. الجعافرة، ماجد، الشعر الجاهلي – دراسة نصية تحليلية، ط١، إربد: دار الكندي، ٢٠٠٣م.
٣١. حور، محمد إبراهيم، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، كلية الآداب، جامعة قسنطينة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
٣٢. الطرابلسي، حسناء بو زويتة، حياة الشعر في نهاية الأندلس، ط١، تونس: دار محمد علي الحامي للنشر، ص١٥.
٣٣. كوهن، جان، بنية اللغة الشعرية، ط١، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٧٦م.
٣٤. هلال، غنيمي، النقد الأدبي الحديث، بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٣م.
٣٥. الوراقي، السعيد، لغة الشعر العربي الحديث، بيروت: دار النهضة، ١٩٨٤م.